الأزمة المالية

محمد صالح المنجد

الأزمة المالية

الناشر

مجموعة زاد للنشر



١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

الأزمـــة المـالـيــة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ 2009



للـنـشـر
المملكة العربية السعودية
الخبر - هـ: ٨٦٥٥٣٥٥
جـدة - هـ: ٦٩٢٩٢٤٢
ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة: ٢١٥٥٢
www.zadgroup.net



تصميم وتنفيذ
مـركـز
التـصـميم



مقدمــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد ذاع في الأفق خبر الأزمة المالية التي تهاوت فيها بنوك كبرى ومؤسسات مالية عظمى، وانحدرت فيها البورصات العالمية، وتبخرت تريليونات، وطارت مليارات من أسواق المال، وهوت دول إلى الحضيض، وفقد عشرات الآلاف أموالهم إما على هيئة أسهم، أو مدخرات أو استثمارات، وتآكلت من استثمارات الشعب الأمريكي في البورصات المالية بمقدار ٤ تريليون دولار، وصارت هذه الأزمة أشبه بتسونامي يعصف باقتصاديات الكثير من الدول.

وقد وقف البشر حائرين أمام هذه الأزمة، إلى أي شيءٍ ستؤول؟

هل ستؤدي إلى إفلاس المصارف والشركات؟

أم ستؤدي إلى سقوط النظام المصرفي؟

وما الآثار العالمية التي يمكن أن تنشأ عنها ؟

فما هي أسبابها؟ وما علاقة ذلك بمصادمة شرع الله والخروج عن حكمه؟وكيف يتعامل المسلمون على المستوى الفردي والجماعي مع آثار هذه النازلة؟.

نسأل الله أن يرينا الحق حقا، ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا، ويرزقنا اجتنابه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،،

محمد صالح المنجد

ما الذي حدث حتى تفجرت الأزمة؟؟

إن الأزمة المالية شديدة للغاية، وهي حدث عظيم له تعقيداته وتداعياته المتعددة، وضخامة الحدث يوضحها الاضطراب الكبير الذي يعيشه الاقتصاديون والسياسيون، من محللين وأصحاب قرار وغيرهم.

ويمكن أن نجمل خلاصة ما حدث في النقاط التالية:

١- شجع الازدهار الكبير لسوق العقارات الأميركية ما بين عامي ٢٠٠١م-٢٠٠٦م، البنوك وشركات الإقراض على اللجوء إلى الإقراض العقاري مرتفع المخاطر، والذي يقوم على منح المقترضين قروضاً بدون ضمانات كافية، وبمخاطر كبيرة مقابل سعر فائدة أعلى (عوائد ربوية أكبر)، والهدف هو تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح (عوائد الربا) لمؤسسات الإقراض، وقد بلغت تلك القروض نحو ١,٣ تريليون دولار في مارس ٢٠٠٧م.

وذكرت بعض التقارير أن الحكومة الأمريكية كان لها دور كبير في التشجيع على الإقراض العقاري لكسب رضا مواطنيها.

٢- ثم توسعت المؤسسات المالية الكبرى في منح القروض للمؤسسات العقارية وشركات المقاولات بما يزيد عن سبعمائة مليار دولار.

ومنح هذه القروض كان قائما على فرضية عدم وجود خسارة أبداً، حتى لو لم يتمكن المقترض من سداد قرضه، فإن سعر المسكن سيزيد مع الزمن، وسيتمكن هذا المقترض من بيع بيته أو يتم الحجر عليه وبيعه بسعر أعلى.

٣- ولكن الذي حصل هو أن ارتفاع سعر الفائدة (العائد الربوي) أدى إلى تغيير في طبيعة السوق الأميركية، ومن ثمَّ قلَّ الطلب على العقار نتيجة ارتفاع أسعاره المبالغ فيها، وبالتالي بدأت أسعاره تتهاوى تدريجياً حتى انخفضت انخفاضاً شديداً.

٤- أدرك المواطن الأمريكي أنه أمام خيارين: إما أن يستمر في تسديد قرض أصبح أعلى من سعر منزله فيما لو سدده دفعة واحدة، أو يمتنع عن التسديد ويترك منزله لكي يستولي عليه البنك، وهو الحل السليم في نظره.

وبلغ حجم القروض المتعثرة للأفراد نحو مائة مليار دولار.

٥- تبع ذلك ازدياد عروض المنازل المرهونة للبيع، مما أدى معه إلى الضغط أكثر على أسعار العقار، وزاد عدد المنازل المعروضة للبيع في الولايات المتحدة ٧٥٪ عام ٢٠٠٧م، حيث بلغ عددها ٢,٢ مليون منزلا.

٦- أصبحت شركات التأمين في مأزق كبير، بسبب تأمينها على تلك القروض المعدومة.

٧- شعر المواطن الأمريكي الذي كان يربط ودائعه بالبنوك (المقرضون للبنوك بالفائدة الربوية) بخطر شديد، وبدأ بفك ودائعه من البنوك.

٨- ضعفت قدرة البنوك على تمويل الشركات والأفراد، الأمر الذي أدى إلى انخفاض الإنفاق الاستثماري والاستهلاكي، وهدد بحدوث كساد كبير.

وبالتالي انخفضت إيرادات البنوك، وبدأت بتسريح موظفيها.

٩- أصبحت مطلوبات البنوك وشركات التأمين أكثر من إيراداتها، وهو ما أدى إلى إعلان بعض البنوك إفلاسها، للاستفادة من نظام إفلاس الشركات المعمول به في أمريكا، وذلك لحمايته من دائنيه، والهروب من المطالبات المستقبلية.

نتائج الأزمة المالية

يقول آلان غرينسبان[1]: (هذه الأزمة هي الأخطر منذ قرن، ولم تنته بعد، وستستغرق مزيدا من الوقت، وأتوقع انهيار العديد من المؤسسات المالية الكبرى بسبب القسوة الاستثنائية لهذه الأزمة).

لذلك كان لهذه الأزمة نتائج كبيرة جدا منها:

١- تكبد أكبر مؤسستين للرهن العقاري في أمريكا وهما «فاني ماي» و«فريدي ماك» خسائر بالغة، حيث تتعاملان بمبلغ ستة تريليون دولار، وهو مبلغ يعادل ستة أمثال حجم اقتصاديات الدول العربية مجتمعة.

وعلقت قرابة ٧٠ شركة رهن عقاري أمريكية عملياتها، وأعلنت إفلاسها، أو عُرضت للبيع منذ بداية عام ٢٠٠٦م وحتى الآن.

٢- أعلنت مصارف أمريكية كبرى إفلاسها، كمصرف «ليمان براذر»، ومصرف «أنتجرتي»، و «واشنطن ميوتشوال».

وقد أدت الأزمة إلى اختفاء ١١ بنكا من الساحة، من بينها بنك «إندي ماك» الذي يستحوذ على أصول بقيمة ٣٢ مليار دولار، وودائع تصل إلى ١٩ مليار دولار.

---

(١) الرئيس السابق للاحتياطي الفدرالي الأميركي.

٣- لجأت الكثير من الشركات العقارية إلى تسريح عدد كبير من موظفيها، ومن بين هذه الشركات شركة «كانتري وايد»، كبرى مؤسسات القروض العقارية في الولايات المتحدة، التي قررت تسريح ٢٠٪ من موظفيها بواقع ١٢ ألف وظيفة، لمواجهة نحو ١,٢ مليار دولار من الخسائر التي لحقت بها جراء أزمة الرهن العقاري.

٤- ما بين ٢-٣ مليون أميركي يواجهون خطر فقدان منازلهم، بسبب عدم قدرتهم على دفع الأقساط الشهرية.

٥- قررت جميع البنوك الأوروبية تجميد صناديقها العاملة في المجال العقاري في الولايات المتحدة، حيث جمد بنك (بي إن بي باريبا) أكبر بنك فرنسي مدرج بالبورصة استثمارات قيمتها (٢,٣) مليار دولار.

٦- أدى ارتباط عدد كبير من المؤسسات المالية خاصة في أوروبا وآسيا بالسوق المالية الأميركية إلى **انتقال أزمة الرهن العقاري من الولايات المتحدة إلى القارة الآسيوية والأوروبية**، لتتطور إلى أزمة أكبر باتت **تعرف بالأزمة المالية العالمية**.

فهذه الأزمة نالت بنوكا غربية عريقة، منها (رويال بنك أوف سكوتلند ار. بي. سي) في بريطانيا، حيث مُني بخسائر بلغت ٦٩١ مليون جنيه إسترليني (١,٣٥ مليار دولار).

وتكبد بنك (أي كي بي إنادستري) الألماني خسارة تقدر بـ ٩٥٤,٨١٨ مليون دولار.

وخسائر مصرف بنك كريدي سويس السويسري سجلت أرقاما قياسية.

والحكومة اليابانية تعلن أن خسائر مؤسساتها المالية نتيجة لأزمة قروض الرهن العقاري تضاعفت إلى ٥,٦ مليارات دولار في الأشهر الثلاثة الأخيرة من عام ٢٠٠٧م!!.

وتوقع كريستوفر والين[١] أن يتم إغلاق ما يقرب من ١١٠ بنكا تصل قيمة أصولها إلى حوالي ٨٥٠ مليار دولار، وذلك بحلول منتصف عام ٢٠٠٩م.

٧- **تدهورت البورصات** والأسواق النقدية العربية أمام مخاطر اتساع الأزمة، وهو أمر متوقع في ظل تبعية الأسواق العربية للاقتصاد الغربي والأمريكي منه على وجه الخصوص.

فقد هبطت الأسهم في أوروبا والولايات المتحدة ودول الخليج بشكل حاد وسط تداعيات الأزمة المالية العالمية، رغم اعتماد خطة الإنقاذ المالي البالغ تكلفتها سبعمائة مليار دولار.

---

(١) العضو المنتدب لشركة أبحاث «تحليلات المخاطر المؤسسية».

وقد شبّه الاقتصادي الفائز بجائزة نوبل «جوزيف ستيغلتز» الخطة بعملية نقل دم إلى شخص يعاني من نزيف داخلي، وقال: إنها لن تتمكن من إعادة الاستقرار تماما للاقتصاد.

وأن الخطة ربما تمنع حالات إفلاس وتحول دون ضياع الرهون العقارية التي كانت سببا في الأزمة المالية، لكنها لن تحقق توازنا ماليا للأسواق.

كل ذلك يؤكد لنا أن خطة الإنقاذ المالية التي أقرتها أمريكا وغيرها بضخ الأموال هي من قبيل المسكِّنات لا المعالجات الجوهرية كما شهد بذلك بعض المحللين.

أسباب الأزمة

نستطيع أن نرجع الأزمة إلى الأسباب التالية:

١ـ التعامل بالربا والقروض الربوية.

لاشك أن الربا من أعظم المعاصي والجرائم، وأنه أحد سيئات النظام الرأسمالي العالمي وأحد أسباب تدهوره وانهياره.

وصور الربا التي كان لها أثر في هذا الانهيار كثيرة ومتداخلة ومعقدة.

ومن أكبرها أزمة الرهن العقاري في أمريكا، حيث قامت البنوك بإغراء الناس ودفعهم للشراء بشتى الوسائل.

ونشط الوسطاء في جلب الناس للبنوك وإقناعهم بجدوى العملية، حتى إذا جاء وقت السداد عجز الناس عن تسديد قروض الرهن العقاري، فانهارت البنوك وتلتها الأسواق في الولايات المتحدة، وبدأت الآن تطال أوروبا.

فالتوسع الهائل في الإقراض لجني الأرباح حتى أصبحت العوائد الربوية فيروسا سرطانيا، يدمر خلايا الاقتصاد.

وتزايدت حجم المديونيات حتى صارت أكبر من نمو الاقتصاد الحقيقي نفسه.

وقد قال الله تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وما حرم الله شيئا إلا وكان في ذلك مصلحة للعباد، والربا له أضرار كثيرة، وعلى مستويات مختلفة، على المستوى العقدي والأخلاقي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

فهو من أكبر الكبائر التي توعد الله عليها بالوعيد الشديد في الدنيا والآخرة.

وأعلن الله الحرب على أصحابها في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار[١].

وتنكير الحرب للتعظيم، وزادها تعظيماً نسبتها إلى اسم الله الأعظم، وإلى رسوله الذي هو: أشرف خليقته[٢].

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٧١٦).

(٢) فتح القدير (١/ ٥٠٣).

هذه الحرب هي حرب على الأعصاب والقلوب، وحرب على البركة والرخاء، وحرب على السعادة والطمأنينة.

إنها الحرب التي أعلنها الله على المتعاملين بالربا .. وهي مسعرة الآن؛ وقد أكلت الأخضر واليابس !

والمتعامل بالربا يتجرد من القيم الإنسانية والأخلاق الفاضلة، فهو جشع وشرير وبخيل، وقلبه أشد قسوة من الحجارة، لا يتورع عن التضحية بكل المثل والأخلاق السامية من أجل درهم ربا.

ولذلك وصفه القرآن بأنه مجنون وممسوس وقلق، كما ورد في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له.

ما الأضرار الاقتصادية الناتجة عن فرض الفوائد الربوية:

١- إضافة الفوائد على تكلفة الأصول أو تكلفة البضاعة يؤدي إلى ارتفاع الأسعار، وهذا يقود إلى التضخم، ولقد قيل: إن الفائدة هي وقود التضخم، فكلما ارتفع سعر الفائدة كلما زاد معدل التضخم.

٢- نظام الفائدة يؤدى إلى تعسر الشركات أو توقفها أو تصفيتها، وذلك في حالة تعذر رجال الأعمال المقترضين عن سداد الفوائد والأقساط، وهذا هو الواقع الذي نعيشه الآن... وهذا يقود لسلسلة من المضاعفات قد تنتهي إلى انهيار البنوك وإفلاس الشركات وخلل في النظام النقدي.

فالربا يقوم بفصل قيمة المال عن قيمته الحقيقية، وذلك بأن يجعل للوقت قيمة مالية، وتصبح المتاجرة ليست في الجهد مقابل المال، وإنما المال مقابل الوقت.

وبهذه الطريقة، يصبح الوقت من مصلحة صاحب المال، وضد مصلحة المستدين، وبدون أن يجتهد أو يعمل أو يتعرض لأي مخاطر، لأن الوقت لا يرجع بالعكس.

وفصل قيمة المال عن قيمته الحقيقية يجعل المال يرتفع وتتجمع قيمته مع الزمن بالتدريج إلى المرحلة التي يكتشف فيها الناس قيمته الفعلية، فينخفض مرة أخرى، وتحصل فيه الاضطرابات المالية التي لم تكن لتحصل لولا وجود الربا.

٣- نظام الفائدة يؤدي إلى حدوث الخلل في الأسواق المالية (البورصات)، وما حدث في دول شرق أسيا ليس منا ببعيد حيث تبين أن السبب الرئيسي في ذلك هو الاقتراض من البنوك بفائدة لتمويل المضاربات في البورصة بنظام الاختيارات والمستقبليات والمعاملات الوهمية.

٤- يؤدي نظام الفائدة إلى خلل في انسياب الأموال إذا كان سعر الفائدة أعلى من العائد المتوقع من استثمار المال، وهذا يحجب التمويل عن المشروعات الضرورية التي يقل عائدها المتوقع عن سعر الفائدة.

٥- يؤدي نظام الفائدة إلى الكساد والأزمات الاقتصادية حيث يتوقف رجال الأعمال عن السداد، وتتوقف البنوك عن التمويل، وهذا هو الواقع.

كاتب أمريكي يقول: حلت لعنة الفوائد على المستهلكين.

٦- يؤدي إلى تكدس المال بيد مجموعة محدودة من الأغنياء يتحرك المال بينهم ويأتي من الآخرين إليهم ولا يذهب منهم إلى الآخرين.

يقول الدكتور الألماني شاخت[١]: إنه بعملية رياضية غير متناهية يتضح أن جميع المال في الأرض سيصبح في يد عدد قليل جداً من المرابين، لأن الدائن المرابي يربح دائماً في كل عملية، بينما المدين معرض للربح والخسارة .

والربا ممحوق عند الله: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

يمحق الربا، أي: يذهبه، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يَحْرِمَه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة.

---

(١) المدير السابق لأحد البنوك الألمانية عام ١٩٥٣م.

كما قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٩].

قال السّعدي رحمه الله: (أي يذهبه وتذهب بركته ذاتا ووصفا، فيكون سببا لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه بل يكون زادا له إلى النار، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله) [١].

إن الله يمحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنْ الرِّبَا إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ**»[٢].

وآكل الربا وكل من أعان عليه ملعون عند الله فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «**لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ:**

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١١٦).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٧٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

هُمْ سَوَاءٌ»[١]. لذلك يؤكد رجال الاقتصاد الإسلامي بأنه لا يوجد نظام أشر على العالم من نظام الفائدة فهو شر ويقود إلى شر، وأن البديل له هو نظام الاستثمار الإسلامي القائم على الشركة، والإجارة، والتصنيع، والسلم.

وخلاصة القول: أن ما نعانيه اليوم من كوارث مالية ما هو إلا نتيجة من نتائج النظام الربوي فقد جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ ، فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ**»[٢] .

ألم يأن للمسلمين بعد هذا البيان أن يتوبوا !!

ألم يأن للذين يتعاملون بالربا أن يتقوا يوماً يرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت.

٢ـ بيع الديون.

من أسباب تفشي هذه الأزمة عملية بيع الديون العقارية وذلك من خلال تصكيكها (تجميعها وتحويلها إلى أوراق مالية يمكن لأي مستثمر في العالم شراؤها).

---

(١) رواه مسلم (١٥٩٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ١٧٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

فيتم تحويلها إلى سندات مالية، ويعمل لها تأمين مخاطر، وتباع كأوراق ائتمانية على شركات استثمارية وعلى مستثمرين، مع رهن يربط بها.

وهذه القروض الجديدة تقوم بنوك أو مؤسسات مالية أخرى بتحويل جانب منها إلى أوراق مالية تحصل بها على قروض جديدة، وهكذا، حتى تكونت أصول مالية ساقطة رديئة، تثمينها صعب، وشراؤها عسير.

والنتيجة أن يكون هنالك بناء مالي من عدة طوابق يمكن أن ينهار إذا انهار أي طابق منه، وهذا ما حدث فعلا.

فكيف إذا كان البناء مبنياً على الربا، وهذا من المحق الذي ذكره الله، ومعناه ذهاب المال وذهاب البركة، والعجز أو عدم القدرة على الانتفاع به.

والشريعة الإسلامية قد منعت من بيع الدين:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ «***نَهَى عَنْ بَيْعِ اَلْكَالِئِ بِالْكَالِئِ***[١]»، يَعْنِي: اَلدَّيْنِ بِالدَّيْنِ والحديث وإن كان ضعيفا ، إلا أن الإجماع منعقد على تحريم بيع الدين بالدين ، كما نقله ابن المنذر وغيره[٢].

---

(١) رواه الدار قطني (٣/ ٧١).

(٢) الإجماع (١١٧).

ومن قرارات مجمع الفقه الإسلامي:

«لا يجوز بيع الدين المؤجل من غير المدين بنقد معجل من جنسه أو من غير جنسه لإفضائه إلى الربا.

كما لا يجوز بيعه بنقد مؤجل من جنسه أو غير جنسه لأنه من بيع الكالىء بالكالىء المنهي عنه شرعاً.

ولا فرق في ذلك بين كون الدين ناشئاً عن قرض أو بيع آجل».

٣- البيوع الوهمية (أو البيع بدون تقابض).

الاقتصاد العالمي مبني على وهم مستندات مالية لا مقابل لها، وقيمتها مرتبطة سياسيا بحجم الطلب، في سيل من المضاربات من دون تسليم فعلي للمواد.

هذه الشكلية في التعامل يرفضها النظام المالي الإسلامي، حيث إن التاجر إذا اشترى بضاعة ولم يستلمها، فلا يسمح له ببيعها والربح فيها، فالتاجر وإن ملك البضاعة بالعقد، لكنه لا يسمح له بالاتجار بها، والحصول على ربح ما لم يستلم البضاعة، حرصا على ربط الأرباح التجارية بعمل، وإخراج التجارة من كونها مجرد عمل قانوني يدر ربحا.

فالشريعة نهت عن بيع الشيء قبل قبضه حتى يكون البيع حقيقياً، فمن اشترى شيئا فليس له أن يبعه حتى يقبضه وينقله من مكانه.

عن حكيم بن حزام ﵁ قال: قلت: يا رسول الله، إني أشتري بيوعا فما يحل لي منها، وما يحرم علي؟ فقال: «**إِذَا اشْتَرَيْتَ بَيْعًا فَلَا تَبِعْهُ حَتَّى تَقْبِضَهُ**»[(١)].

وعن زيد بن ثابت ﵁ أن رسول الله ﷺ: «**نَهَى أَنْ تُبَاعَ السِّلَعُ حَيْثُ تُبْتَاعُ حَتَّى يَحُوزَهَا التُّجَّارُ إِلَى رِحَالِهِمْ**»[(٢)].

وعن ابن عباس ﵄ أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ ابْتَاعَ طَعَامًا فَلَا يَبِعْهُ حَتَّى يَقْبِضَهُ**»[(٣)].

قال ابن عباس ﵄: وأحسب كل شيء مثله. أي: لا فرق بين الطعام وغيره في ذلك.

كما أن النهي عن بيع ما لم يقبض له حكم بالغة يعجز النظام الاقتصادي العالمي عن وضعها، بما يكفل للشريعة الإسلامية التميز والمصداقية المطلقة في أنها من لدن حكيم خبير.

فمن ذلك أن بيع ما لم يقبض يترتب عليه الربح فيما لم يدخل في ضمانه، مما يجعل المبيع مضمونا للمشتري الأول على البائع، ومضمونا عليه للمشتري الثاني، وهو ما يعرف في لسان الفقهاء بتوالي الضمانين، وهذا في حال تلف المبيع عند البائع الأول يفضي إلى نزاعات عظيمة، مما يجعل العقد غير مستقر.

---

(١) رواه أحمد (١٤٨٩٢) والنسائي (٤٦٠٣) وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٣٤٩٩)، وحسنه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٢١٣٢)، ومسلم (١٥٢٥).

كما أنه في حال تلف المبيع عند البائع الأول فإن العقد ينفسخ، ومن ثم يترتب عليه فسخ العقود الأخرى المنعقدة بعده.

فأساس المشاكل المالية والمخاطر الدولية التي تهدد النظام المالي الدولي هو تخطي هذه القاعدة.

فإذا باع المشتري السلعة لآخر قبل قبضها، ثم باعها الثاني لثالث، والثالث لرابع وهكذا ...كما يحدث كثيراً في الأسواق الدولية اليوم، نشأ عن ذلك هرم من الالتزامات التي يتكئ بعضها على بعض بصورة هشة جداً.

فإذا أخفق الأول أو من يليه في تسليم المبيع، تسلسل إخفاق هذه العقود واحداً تلو الآخر، وتحول هذا الهرم إلى هرم من الديون الحالَّة التي يجب على كل مدين فيها سداد دينه فوراً، وكلما كبر هذا الهرم كلما ارتفع احتمال انهياره من أي موضع فيه.

وهذا من شأنه أن يزعزع الثقة في أداء الاقتصاد واستقراره، فمنع الشارع الحكيم هذا التصرف من أساسه سداً لهذا الباب.

ولذلك أصدرت الهيئة الفرنسية العليا للرقابة المالية - وهي أعلى هيئة رسمية تعنى بمراقبة نشاطات البنوك- في وقت سابق قرارا يقضي بمنع تداول الصفقات الوهمية، والبيوع الرمزية التي يتميز بها النظام

الرأسمالي، واشتراط التقابض في أجل محدد بثلاثة أيام لا أكثر من إبرام العقد، وهو ما يتطابق نوعا ما مع أحكام الفقه الإسلامي[١].

وقد كانت أكمل حالات الاستقرار المالي حينما كانت قيمة النقود في ذاتها، أي: عندما كان الناس يتعاملون بالذهب والفضة.

ثم بدأ الفساد بنسبة محدودة عندما انتقل الناس إلى الأوراق المالية التي لا تطبع إلا بوجود ما يغطيها من النقود الحقيقية (الذهب والفضة).

ثم ازداد الفساد الاقتصادي حينما سحب الغطاء الذهبي، فأصبح بإمكان الدول أن تطبع ما شاءت من الأوراق المالية التي تستمد قيمتها من الاستقرار والقوة السياسية للدولة صاحبة العملة.

واكتمل الفساد الاقتصادي حينما أصبحت أموال الناس عبارة عن أرقام يرونها عبر الشاشات التي تعرض أرصدتهم، ومن صور هذا الفساد الاقتصادي أن البنوك سمح لها أن تقرض عشرة أضعاف موجوداتها الحقيقية، ووصل الحد قبل الأزمة الأخيرة إلى أن بعض المؤسسات أقرضت ثلاثين ضعف موجوداتها الحقيقية، وهذه حقيقة الأموال الوهمية .

فكانت النقود لتسهيل انتقال السلع بين الناس، فصارت التجارة منها وفيها.

---

(١) أجاز المالكية خلافا للجمهور تأخير القبض ثلاثة أيام لخفة الأمر ولأن ما قارب الشيء يعطى حكمه انظر بداية المجتهد (٢/ ٢٠٢).

٤ـ التعامل بالميسر:

والذي تسبب في سقوط شركات التأمين التي تم تأمين السندات عندها.

التأمين على مخاطر الديون الهالكة، فلكي يستغلوا الاحتياطي المرصود لها تفتقت عقولهم على بيعها مع التأمين عليها، وهذا من أكبر أسباب انهيار شركة (AIG) اكبر شركة تأمين.

وقد كان لشركات التأمين نصيب كبير من حجم الخسائر؛ إذ إنها كانت حلقة الوصل بين المقترضين وبين البنوك.

فكان المقترضون يؤمنون على ممتلكاتهم في حالة حدوث عجز عن تسديد مستحقاتها.

وكذلك كانت البنوك تؤمن على قروضها كي تضمن تسديد قرضها إذا عجز المقترض عن ذلك!!

الجدير بالذكر إعلان شركة (AIG) مؤخرا عن دفعها ١١ بليون دولار كتعويضات، وتكبدها أكبر خسائر في تاريخها الذي يمتد إلى تسعين عاما!!!!

أين أخذ العبرة من انهيار شركات التأمين على رأسها (AIG) والتي عملت على مبدأ التأمين على مقايضة الديون.

ومن هنا يتبين لنا الحكمة العظيمة في تحريم التأمين، لما يشتمل عليه من

غرر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ**»[(١)].

والمشتمل على الميسر الذي حرمته الشريعة.. لأن المؤمِّن يدفع لشركة التأمين مبلغا من المال، على وجه المخاطرة، فإما أن يعود مضاعفا أضعافا كبيرة، وإما أن يضيع عليه.. وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

فالمؤمن يعطي مالا قليلا ويأخذ مالا كثيرا، وقد لا يأخذ شيئا وقد تخسر الشركة أموالا عظيمة.

فاجتمع فيه الميسر والغرر بأنواعه الثلاثة، غرر الحصول وغرر المقدار، وغرر الأجل.

ناهيك عن اشتماله على الربوين، ربا النسيئة لأنه مال بمال مع التأخير، وربا الفضل فيما إذا أخذ أكثر مما دفع.

٥ـ الطمع والخداع واستغلال حاجات الناس.

فقد توسعت بعض هذه البنوك في الإقراض لأكثر من ستين ضعفا من حجم رؤوس أموالها، ويقال: إن الوضع بالنسبة لبنك Lyman كان أكبر،

---

(١) رواه مسلم (١٥١٣).

وهذه الزيادة الكبيرة في الاقتراض تعني مزيداً من المخاطر إذا تعرض بعض المدينين لمشكلة في السداد.

والسبب في زيادة الإقراض والاقتراض هو الجشع؛ لأن ذلك يعني مزيداً من الأرباح، أما المخاطر الناجمة عن هذا التوسع في الإقراض فهي لا تهم مجالس الإدارة في معظم هذه البنوك، والتي تهتم فقط بالأرباح قصيرة الأجل، حيث يتوقف عليها حجم مكافآت الإدارة.

وقد استفزت الأزمة ردود فعل شعبية غاضبة لدرجة أن قادة كنائس إنجلترا وصفوا بعض المضاربين في أسواق المال بأنهم قطاع طرق ولصوص.

وتشير عناوين صحف أمريكية إلى حجم الرفض الاجتماعي لطبقة رجال الأعمال.

فمثلاً قالت مجلة التايم: إن الأزمة الراهنة هي ثمن الطمع.

وقال صحيفة شيكاغو تريبيون: (لوموا الطمع).

وفي دراسة في موقع إلكتروني[١]: أن سبب المشكلة كلها راجع إلى الجشع والطمع عند الناس، وخاصة الذين يتاجرون في الأسواق المالية مثل البورصات والقروض.

ويذكر المقال الكثير من الحالات التي ثبت فيها الطمع بشكل واضح،

---

(١) http://www.acton.org/commentary/425_greed_hurts.php

وكثير منها آلت إلى محاكمة القائمين على الشركات الطامعة، مثل إنرون والمتعاملين في سوق وول ستريت.

ويلخص الحل بأنه يجب أولاً أن نغير قلوبنا ونترك الطمع والجشع، وبعدها يمكن أن نقوم بعمل القوانين التي يمكن أن تنجح فقط إذا نجحنا في إصلاح قلوبنا.

والآن كبار المرابين يقومون باستغلال الإفلاس: فهم يعمدون الآن إلى شراء الأصول العقارية وأصول المصانع والشركات بأسعار هابطة كما فعل وارن باكيت حينما اشترى وسترن هاوس.

فهم يقرضون الناس حتى يفلسوا، ثم يشترون أصولهم ورهونهم بمبالغ زهيدة، وبهذا يتحقق في النظام الغربي تحول المال إلى كونه دولة بين الأغنياء من الناس.

وهذا قريب مما يفعله بعض هوامير الأسهم من إخراج الصغار بتنزيل السعر وشرائهم لأسهمهم، وذلك إما بصنعهم لأزمة تتسبب في إنزال السعر أو استغلالهم لبعض الأزمات كالأزمة المالية المعاصرة .

٦ـ الظلم والتكبر والبغي في الأرض بغير الحق:

ويكفي أن نعلم أن كلفة الحرب على العراق وأفغانستان ١٥ مليون دولار شهريا، ١١ مليون للعراق و ٤ لأفغانستان.

يقول أوباما في مناظرته: أنفقنا أكثر من (٧٠٠) مليار دولار على الحرب على العراق.

وتقول بعض الدراسات الأمريكية: إن الحرب كلفت أمريكا حتى الآن ٣ ترليون دولار.

فما أصابهم جزاء من حاد عن شرع الله وظلم وتجبر وتكبر، وقد ذكر الله تعالى خيبة الظالمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]

فالظالم محروم من الفلاح في الدنيا والآخرة، وقد توعّد الله الظالمين بالعذاب والنكال الشديد، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].

وهددهم بسوء العاقبة وشؤم المنقلب فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ:** : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ »[1].

وإن عقاب الله للظالمين لا يقتصر على الأفراد، بل إن سنة الله جارية حتى على الأمم .

(١) البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

وأخبار الظالمين وما جرى لهم من العذاب كثيرة، والأمم التي أهلكها الله تعالى بسبب ظلمها وبغيها عديدة، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١].

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩] .

وقد عاقب الله الأمم الظالمة بأنواع من العقوبات: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١].

وكلمة «قارعة» نكرة تفيد العموم فتعم كل قارعة.

والقارعة قد تكون مسموعة كالصواعق والعواصف... وهناك قوارع تقرع القلوب بالذعر والهلع كقوارع الانهيارات المالية. (أو تحل قريباً من دارهم).. فتروعهم وتدعهم في قلق وانتظار لمثلها؛ وقد تلين بعض القلوب وتحركها وتحييها.

وما أصاب أمريكا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

وهذه تنسحب على كل بلد ودولة، والأزمات الاقتصادية تأتي بالجوع والخوف كما في الآية: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ [البقرة: ١٥٥] فقد تبخرت الترليونات.

مما تكشفت عنه الأزمة

١ـ إفلاس النظام الرأسمالي بعد انهيار النظام الشيوعي.

الرأسمالية نظام قائم على حرّية التملّك الفردي، ويدعو إلى حرية اختيار الأعمال والنشاطات الاقتصادية بلا قيود.

ولهذا ترك الباب مفتوحا على مصراعيه؛ ليتصرّف الفرد كما يشاء، ولو على حساب المجتمع كلّه، دون أن يضع حدّا لهذه الملكية، فهو حرّ في ماله وتصرفاته الاقتصادية لتنمية ذلك المال، الأمر الذي أدى إلى تضخّم رؤوس الأموال لدى فئة من المجتمع.

فانقسموا إلى: غنيّ ذو غنىً مفرط، وفقير ذو فقرٍ مدقع، ومن هنا عُدِم التوازن.

وهذا بدوره أدى إلى ظهور الطبقية في تلك المجتمعات التي يسود فيها هذا النظام.

وعند التطبيق العملي نجد أن هذا النظام ثبت فشله، وبان عواره، لاسيما في الأزمة الحالية، فعجز عن تحقيق التوازن والعدالة الاجتماعية والاقتصادية بين فئات المجتمع المختلفة، وازداد الأمر سوءا مع الضغوط المتتالية لمستجدات اقتصادية لم يستطع هذا النظام معالجتها، ولا إيجاد بدائل تحقق رغباتهم، فمن هنا دخل الخلل وأعلن إفلاسه.

وهذه نهاية كلّ نظام لا يقوم على نور من الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ في ضوء الكتاب والسنّة النبوية المطهّرة.

ولقد اعترف الغرب بفشل النظام المالي الحالي، الذي طالما تباهوا به، وزعموا أنه أكمل ما وصلت إليه البشرية، وأنه لم يأت ولن يأتي نظام أكمل منه.

بل استطالوا بسببها على الشريعة الإسلامية وعلى ما قبلها من الشرائع، بل وصل بمفكريهم الحال إلى اعتقاد أنهم وصلوا إلى درجة الإعلان عن النصر الليبرالي العظيم الذي سيكون نهاية التاريخ. ورددها معهم الأتباع في العالم الإسلامي وأساءوا بها إلى الشريعة.

ومن اعترافاتهم بفشل هذا النظام – مع استمرارهم عليه– قول الرئيس الفرنسي (نيكولا ساركوزي): (إن النظام المالي العالمي على وشك كارثة، وإننا في حاجة إلى إعادة بناء النظام النقدي والمالي العالمي من جذوره، ففكرة وجود أسواق بصلاحيات مطلقة دون قيود، ودون تدخل الحكومات هي فكرة مجنونة، وفكرة أن الأسواق دائما على حق هي فكرة مجنونة أيضا).

ودعا إلى قمة تجمع قادة الدول الكبرى لوضع نظام عالمي مالي جديد قبل نهاية عام ٢٠٠٨م[١].

---

(١) http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/business/newsid_7636000/7636903.stm

وأحد الأساقفة في الكنيسة الأنجليكانية قال: لقد كان كارل ماركس محقاً في تشخيص الرأسمالية[١].

ومن أكبر دلائل فشل نظامهم أن خطة إنقاذه التي تقر حالياً وتكلف مئات المليارات قائمة على نقض أصوله.

فرغم أن النظام الاقتصادي العالمي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية قائم على الاقتصاد الحر ورفعه شعار: (الدولة تحكم ولا تملك)، (دعه يعمل دعه يمر).

فهو يعطي الفرد حرية بلا حدود، عكس النظام الاشتراكي الذي يحد من حرية الأفراد مقابل تعظيم دور الدولة.

رغم ذلك وجدنا في حلول الإدارة الأمريكية للأزمة تدخل الدولة بكل كيانها، وضخ الأموال وسن الأنظمة من أجل حماية مؤسساتها الاقتصادية من الانهيار.

بل أكد وزير الخزانة الأمريكية (هنري بولسون) ذلك بقوله إن التدخل غير المسبوق والشامل للحكومة يعتبر الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون انهيار الاقتصاد الأمريكي بشكل أكبر.

---

(١) الشرق الأوسط عدد ١٠٩٠٢.

فأين النظام الرأسمالي الذي يتبجحون به !!

والنظام الاشتراكي: وهو نقيض النظام الرأسمالي، يقوم على مبدأ تحويل جميع الممتلكات الخاصة إلى ممتلكات عامة، حتى يوفّر للمجتمع كل مستلزمات الحياة، بأساليب أكثر عدالة.

ولكن أمام بعض الظروف التي طرأت سقط هذا النظام وأعلن فشله.

والعلاجات الغربية للأزمة: هي عبارة عن تخبط في الربا، يخرجون من لعنة الله، ويدخلون في غضب الله، وذلك لأنها تقوم على توفير سيولة مالية بالربا للمصارف، لإقراض بعضها بعضا، ولإقراض المستهلكين.

حتى خطة الـ ٧٠٠ مليار تأتي من خلال قروض ربوية.

وكذلك اقتراح البنك الفيدرالي المركزي بإعطاء المصارف ربا على الاحتياطات المالية التي تودعها لديه.

٢ـ فشل نظرية فصل الإسلام عن الاقتصاد.

فقد كان أهل النفاق يقولون: ما علاقة الدين بالاقتصاد، وكما قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

إن هذا الكلام الصادر عن قوم مدين في الإنكار على شعيب عليه السلام هو

نفسه الكلام الذي يصدر عن الجاهليين دائما الذين يستغربون تدخل الإسلام في تجاراتهم وأموالهم واقتصادهم خاصة أهل هذا العصر!!.

فهذه المحاولة للتفريق بين الحياة الاقتصادية والإسلام، قديمة منذ زمن قوم شعيب عليه السلام. لقد أنكروا أن يتدخل الدين في حياتهم اليومية، وسلوكهم واقتصادهم وطريقة إنفاقهم لأموالهم بحرية.

إن المقولة التي قالها قوم شعيب عليه السلام قبل آلاف السنين هي ذاتها التي يقولها بعض الناس اليوم ممن يدعون إلى الفصل بين العقيدة والشعائر، والشريعة والتعامل، فيجعل العقيدة والشعائر لله، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله..

يقولون: ما للإسلام وسلوك الإنسان الشخصي، وحياتهم الاقتصادية، وأسلوب الإنتاج، وطرق التوزيع وتصرف الناس في أموالهم كما يشاءون..؟

لماذا تدخلون أمر الدين في صلب الحياة، ما علاقة الدين بالاقتصاد؟

فهم ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين في الاقتصاد، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد.. فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟

لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده.

وأن إسلامكم ينظم العلاقة والصلة بينكم وبين ربكم، لكن لا دخل له في الحياة والمجتمع، فنحن ننظم حياتنا الاقتصادية كما نريد.

نحن اليوم نواجه جاهلية أشد جهالة من أهل مدين، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة والسلوك الشخصي في الحياة، والمعاملات المادية في السوق.. تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!!!.

٣ـ **سقوط نظرية: لا اقتصاد بغير بنوك ولا بنوك بلا ربا.**

٤ـ **الفارق السلبي القاتل بين** القطاع العيني: السلع والخدمات والمنتجات الحقيقية، والقطاع المالي: النقود الورقية، والالكترونية، والسندات المالية، ووسائل الدفع الالكترونية ببطاقات ائتمانية على نقود وهمية... وأرصدة الكترونية ليست موجودة إلا في ذاكرات الحواسيب... تضمنها بنوك، فإذا فقدت الثقة في البنوك ومصدّري البطاقات، فماذا بقي؟.

٥ـ **عجز البشر في التحليل أو الحل أو منع الأزمات**، وفي مقابل ذلك قدرة الله التامة النافذة التي لا يعجزها شيء ﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١].

والنظام المادي في رغبته لتحويل كل الأشياء لصورة مادية فإنه قد أنشأ مجموعة من الأساليب المادية التي يستطيع أن يتنبأ بها بالنتائج المستقبلية بناءً على مقدمات ومعلومات ليتوقى الكوارث ويحقق الازدهار والمكاسب،

وجعلوا لذلك حواسيب ضخمة لحساب هذه المعادلات واستخراج هذه النتائج واتكأوا على هذه الوسائل وتوكلوا عليها.

فجاءت هذه الأزمة على خلاف توقعاتهم، بل إن أحد مراكز الاستشراف التي تنبأت بأن العام ٢٠٠٩م سيكون عام ازدهار اقتصادي، جاءت هذه الأزمة مخيبة لتوقعاتهم مما دعاهم إلى القول بأنهم سيعيدون نظرتهم وتوقعهم للوضع المالي في المستقبل.

والمنافقون: ظنوا أنهم يأوون إلى ركن شديد، وقالوا: النظام المالي العالمي محكم لا يتطرق إليه الخلل... كما قال ابن نوح ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣] فأين هو الآن؟.

فلم تنجهم التقنية ولا الأنظمة لأنها عمل بشر.

فالذين ربطوا نظامهم بنظامهم، وعملاتهم بدولارهم، ودخلوا جحورهم في منتجاتهم الربوية، أصابهم ما أصابهم.

وهؤلاء الموالون لمن تمرد على شرع الله يفتنون في كل عام مرة أو مرتين بسبب الذين يثقون بهم ويرتبطون بهم ويقلدونهم.

وفي هذا إبطال لعبادة الأسباب التي يركز عليها الماديون، وتفسير المصائب بالأسباب المادية ونسيان الأسباب والسنن الإلهية. مع التأكيد على أن الأخذ بالأسباب دون التوكل عليها ودون إلغاء البعد الغيبي المتمثل بالتوفيق والبركة والمحق وأمثال هذه المعاني أمرٌ مطلوب بقدره لا يتجاوز به حده.

٦ـ بيان خطورة الدَّيْن وعواقبه.

الدَّيْن وإن كان جائزا في الأصل إلا أنه ينبغي عدم التوسع فيه لاسيما مع عدم الحاجة إليه، فلا يستدين إلا لحاجة أو ضرورة.

فعن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يدعو في صلاته ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ**»[(١)] فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم !فقال: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»[(٢)].

ومع الأسف فأكثر الناس اليوم يتساهلون في الاستدانة تساهلاً عجيباً، فيستدينون بحاجة وبغير حاجة، بل تجدهم يستدينون لشراء كماليات وتحسينات يمكن الاستغناء عنها، فيظنون أن الاقتراض أسهل الأمور، وهو سهل حلو عند أخذه، مر حنظل عند حلول وقت دفعه .

ولو أن الناس علموا خطورة الدين، لفكروا مراراً قبل أن يستدينوا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ**»[(٣)].

---

(١) المغرم: هو الدين.

(٢) رواه البخاري (٨٣٣)، ومسلم(٥٨٩).

(٣) رواه الترمذي(١٠٧٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

النظام الإسلامي هو الحل الحقيقي للأزمة

هذه الأزمة المالية الطاحنة التي ضربت العديد من دول العالم تمثل فرصة ذهبية للنظام الاقتصادي الإسلامي كبديل اقتصادي ناجح وهو ما يحتاجه العالم في الوقت الحالي.

يُعد فشل النظام الاشتراكي، وسيتبعه النظام الرأسمالي قريباً -إن شاء الله- أقوى دليل على أن النظام الاقتصادي الإسلامي هو الصالح.

فهو ينظر للفرد والجماعة معا، ولا ينتظر وقوع الأزمات حتى تتدخل الحكومات بل يقي أصلا من وقوعها.

كما أنه يحترم الملكية الفردية ولا يكبتها كما في النظام الاشتراكي، ويؤهلها لتنمو في حضن القيم الإيمانية فلا غش، ولا تدليس، ولا احتكار، ولا ربا، ولا مقامرة، ولا غبن، ولا استغلال، كما هو عليه نظام اقتصاد السوق.

وفي الوقت نفسه لا يهمل دور الدولة كشريك للتنمية مع القطاع الخاص، من خلال اضطلاعها بمشروعات المنافع العامة التي تقوم عليها حياة الناس من خلال أفضل استخدام للموارد المائية والرعوية ومصادر الطاقة والثروة المعدنية، والحقيقة أن العقل والمنطق يقول إن هذا النظام هو الحل.

فلابد أن يطرح الحل الإسلامي على أنه الحل البديل، بل ليس البديل وإنما هو الأصيل، وغيره هو الدخيل.

والاستثمار الأكبر للحدث هو إظهار محاسن البناء والنظام الإسلامي خصوصاً بعد سقوط الاشتراكية التي من آفاتها قتل الطموح الفردي وحرمان أصحاب الجهد من جهدهم ومكافأة الكسالى.

وسقوط النظام المالي الذي يقوم على تقديس الفرد وسحق من عداه.

وذلك لأن النظام الإسلامي نظام فيه تملك بضوابط وفيه حفظ لكل الحقوق.

ومن أهم المبادئ التي يقوم عليها الاقتصاد الإسلامي:

- أن المال مال الله والبشر مستخلفون فيه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].
- ضمان حد الكفاية لكل فرد في المجتمع الإسلامي، حتى لغير المسلمين، فعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً**»(١).
- تحقيق العدالة الاجتماعية وحفظ التوازن الاجتماعي بين أفراد المجتمع. ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

---

(١) رواه أحمد(١٧٥٥٤) قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

- احترام الملكية الخاصة للنساء والرجال سواسية، ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[النساء: ٧].
- الحرية الاقتصادية المقيدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾[النساء: ٢٩].
- التنمية الاقتصادية الشاملة للقطاعات والأنشطة كافة.
- ترشيد الاستهلاك والإنفاق مع مراعاة الادخار أيضاً ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٣١].
- تحريم الربا بكل صوره وأشكاله.
- تحريم الغرر والميسر.
- تحريم التعامل في الأمور المحرمة شرعا (الخمر والزنا..).
- تقاسم الربح والخسارة في الشراكة.
- الأمر بإخراج الزكاة من أرباب الأموال، وفيه التكافل وإعادة توزيع الأرباح ليكون لمستحقي الزكاة نصيب فيها.
- تحريم الاحتكار، وفيه التخلي عن الأنانية وحب التفرد، والقضاء على الطبقية المقيتة.
- تغليب المنفعة العامة على المنفعة الخاصة عند التضارب.

- تحريم بيع ما لا يمتلكه الفرد وذلك لمنع المخاطرة أو المقامرة.
- مراقبة السوق المالي دون التدخل في تحديد السعر عن طريق من يسمى بـ (المحتسب).
- منع كافة البيوع المحرمة مثل: العينة، الغرر، الجهالة، بيع ما لا يقدر على تسليمه، والقروض المشتملة على المنفعة.

وقد دعت كبرى الصحف الاقتصادية في أوروبا لتطبيق الشريعة الإسلامية في المجال الاقتصادي كحل أوحد للتخلص من براثن النظام الرأسمالي الذي يقف وراء الكارثة الاقتصادية التي تخيم على العالم.

ففي افتتاحية مجلة «تشالينجز» كتب (بوفيس فانسون) رئيس تحريرها موضوعا بعنوان (البابا أو القرآن) أثار موجة عارمة من الجدل وردود الأفعال في الأوساط الاقتصادية.

وقال في مقاله: (أظن أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلا من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا، **لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطبقوها ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات**، ولما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأن النقود لا تلد النقود)[١].

---

(١) http://www.challenges.fr/magazine/0135-016203/le_pape_ou_le_coran.html/

وكتب (رولان لاسكين) رئيس تحرير صحيفة «لوجورنال د فينانس» مقالا بعنوان: (هل تأهلت وول ستريت لاعتناق مبادئ **الشريعة الإسلامية؟**).

وبين في مقاله المخاطر التي تحدق بالرأسمالية وضرورة الإسراع بالبحث عن خيارات بديلة لإنقاذ الوضع، وقدم سلسلة من المقترحات **في مقدمتها تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية برغم تعارضها مع التقاليد الغربية ومعتقداتها الدينية**.

وطالب بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي لوضع حد لهذه الأزمة التي تهز أسواق العالم من جراء التلاعب بقواعد التعامل والإفراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة.

ودعا مجلس الشيوخ الفرنسي إلى ضم النظام المصرفي الإسلامي للنظام المصرفي في فرنسا، وقال: (إن النظام المصرفي الذي يعتمد على قواعد مستمدة من الشريعة الإسلامية مريح للجميع مسلمين وغير مسلمين، وأكدوا أن هذا النظام المصرفي الذي يعيش ازدهارا واضحا قابل للتطبيق في فرنسا)[1].

ودعا رئيس اللجنة المالية بمجلس الشيوخ الفرنسي إلى إدراج المعاملات الإسلامية في النظام المصرفي الفرنسي لكونها حلا ممكنا للعجز بالتمويل الذي يعاني منه اقتصاد البلاد.

---

(١) http://www.aljazeera.net/NR/exeres/CB71F733-B0AB-401B-9214-A47A22F10994.htm

واعتبر (جان أرتوي) أن من المفيد لفرنسا أن تحذو حذو بريطانيا التي بدأت منذ ٢٠٠٤م تقديم خدمات مصرفية متفقة مع الشريعة الإسلامية لأفراد الجاليات المسلمة، وجعلت من لندن المركز الأوروبي المرجعي في ميدان التعاملات المالية الإسلامية[١].

ومنذ سنوات والشهادات تتوالى من عقلاء الغرب ورجالات الاقتصاد ينبهون على خطورة الأوضاع التي يقود إليها النظام الرأسمالي على صعيد واسع، وضرورة البحث عن خيارات بديلة تصب في مجملها في خانة البديل الإسلامي.

ففي كتاب صدر مؤخرا للباحثة الإيطالية (لوريتا نابليوني) بعنوان «**اقتصاد ابن آوى**» أشارت فيه إلى أهمية التمويل الإسلامي ودوره في إنقاذ الاقتصاد الغربي.

واعتبرت أن (مسئولية الوضع الطارئ في الاقتصاد العالمي والذي نعيشه اليوم ناتج عن الفساد المستشري والمضاربات التي تتحكم بالسوق والتي أدت إلى مضاعفة الآثار الاقتصادية).

وقالت: (إن التوازن في الأسواق المالية يمكن التوصل إليه بفضل التمويل الإسلامي بعد تحطيم التصنيف الغربي الذي يشبه الاقتصاد الإسلامي بالإرهاب).

---

(١) http://www.aljazeera.net/NR/exeres/5A6777D5-AF93-4792-AC4D-6A88AA30D0BE.htm

وقالت أيضاً: (المصارف الإسلامية يمكن أن تصبح البديل المناسب للبنوك الغربية، فمع انهيار البورصات في هذه الأيام وأزمة القروض في الولايات المتحدة فإن النظام المصرفي التقليدي بدأ يظهر تصدعا ويحتاج إلى حلول جذرية عميقة).

ومنذ عقدين من الزمن تطرق الاقتصادي الفرنسي الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد (موريس آلي) إلى الأزمة الهيكلية التي يشهدها الاقتصاد العالمي بقيادة «الليبرالية المتوحشة» معتبرا أن الوضع على حافة بركان، ومهدد بالانهيار تحت وطأة الأزمة المضاعفة (المديونية والبطالة).

واقترح للخروج من الأزمة وإعادة التوازن شرطين هما:

١- تعديل معدل الفائدة إلى حدود الصفر.

٢- ومراجعة معدل الضريبة إلى ما يقارب ٢٪.

وهو ما يتطابق تماما مع إلغاء الربا، ويقارب نسبة الزكاة في النظام الإسلامي.

ومن واجب الخبراء الماليين الإسلاميين:

أن يستخرجوا النظام المالي الإسلامي من القرآن والسنة ويقدموه نظاما ماليا مستقلا لا تابعا، ولا ترقيعيا، ولكنه الدين الوحيد.

لماذا سبقت بعض الدول الغربية في المصرفية الإسلامية في الوقت الذي تعاني فيه كثير من المصارف الإسلامية من التضييق والمحاصرة في مواطنها؟

لقد أدرك غير المسلمين أن النظام المالي الإسلامي مربح وعادل.

اقتنع الغرب بمنع البيع على المكشوف والمتاجرة بالديون، فهل اقتنعنا نحن بشريعة الله؟.

أين الرؤية الواضحة للنظام المصرفي الإسلامي الذي يحقق مقاصد الشريعة، والقائم على منتوجات أساسها المشاركة في السلع، والتداول الحقيقي للسلع، وليس التورق ومقلوب التورق.

الآثار النفسية والاجتماعية للأزمة المالية

لا شك أن العالم اليوم يمر بأزمةٍ اقتصاديةٍ عنيفة .. قد بدت آثارها واضحةً على كافة الأصعدة.

إنها صدمةٌ قاسيةٌ للاقتصاد العالمي:

- أُقفلت خلالها أبواب البنوك.
- هوت فيها ثقة المَحافظ الاستثمارية إلى الحضيض.
- منيت مؤشرات أسواقها المالية بخسائر فادحة فاقت ١٠ تريليون دولار، مما يعادل ٨٠٪ من إجمالي قيمة التجارة العالمية وكانت أمريكا أكبر الخاسرين بحدود ٣,٤ تريليون دولار، تبعتها أوروبا بخسائر فاقت ٢,٦ تريليون، ثم اليابان وروسيا وجنوب كوريا وآيسلندا والصين واليابان والهند.
- تهاوت البنوك والبورصات العالمية، وانحدرت أسعار الأسهم والسندات من أقصى غرب العالم إلى شرقه.
- تبخرت الأرقام الفلكية لملايين بل مليارات الدولارات التي كانت تظهر على شاشات البورصات.
- تريليونات الدولارات ضاعت من أسواق المال... وتريليونات أخرى تبخرت من صناديق مدخرات المتقاعدين.

- عشرات الآلاف فقدوا أموالهم إما على هيئة أسهم، أو مدخرات، أو استثمارات.
- ثلث مدخرات الشعب الأمريكي البالغة ٤ تريليون دولار تتآكل في سوق الأسهم.
- عجز الميزانية الأمريكية تضاعف ثلاث مرات.
- هوت كثير من الدول اقتصاديا من القمة إلى الحضيض.
- ١٥٥ مليار دولار خسارة بورصات الخليج في أسبوع[١]. تراجعت الاستثمارات العربية نحو ٤٠٪ نتيجة انخفاض قيمة الدولار خلال الفترة الماضية[٢].

آثار الأزمة النفسية والاجتماعية:

ألقت الأزمة بظلالها على الناس في كافة المجالات.

فمن الناحية النفسية :

- **الإصابة بالقلق والاكتئاب:**

فالملايين من الأشخاص في العالم يصابون بالاكتئاب جراء الأزمة.

(١) سي ان ان ١١/ ١٠/ ٠٨
(٢) الجزيرة نت.

فعدد الأشخاص الذين يعانون من القلق جراء الأزمة ويطلبون المساعدة سجل ارتفاعاً كبيراً في الآونة الأخيرة، تقول العالمة النفسية الأمريكية (نانسي موليتور): (لم أشهد يوما طوال ممارستي هذه المهنة منذ عشرين عاما، ما يشبه ذلك، إن مستوى القلق يحطم كل الأرقام القياسية).

وازداد الشعور بالاكتئاب والحزن ليشمل ٥٦٪ والمصابون بالقلق من جميع الأعمار والأوضاع...فالمخاوف والأزمات النفسية وصلت لذروتها لدى الأمريكيين.

- **الأزمة المالية تحرم الأمريكيين النوم:**

أفاد مسح أجرته مؤسسة كومسايك كورب، أن (٩٢٪) من المشاركين قالوا: إن الأزمة الاقتصادية تبقيهم مستيقظين في الليل.

وقال ثلث هؤلاء: إن أكبر باعث للقلق لديهم هو تكلفة المعيشة. بينما أشار ثلث آخر إلى القلق بشأن الديون على بطاقاتهم الائتمانية. وأكد واحد من كل ستة أن أكبر مصدر للقلق لديهم هو سداد الرهون العقارية[١].

- **حالات انتحار نتيجة ضغوط الأزمة:**

انتحار امرأة في التسعين من عمرها بعدما بلغها أمر طرد من المنزل الذي كانت تسكنه منذ ٣٨ عاما.

---

(١) صحيفة عكاظ (الأربعاء ٠١/ ١١/ ١٤٢٩هـ) ٢٩/ أكتوبر/ ٢٠٠٨ العدد (٢٦٩١) نقلا عن رويترز – نيويورك.

انتحار تاجر عربي بعد انهيار أسهمه في البورصة.

وآخر يذبح زوجته وابنته ويحرق جثتيهما ثم ينتحر، بعد خسارته كل أمواله في البورصة.

وقام مدير مالي[(١)] في لوس أنجلس بقتل زوجته، وأطفاله الثلاثة، وأم زوجته، ثم انتحر بعد ذلك، وفي رسالة تركها للشرطة قال: إنه قد انتحر بسبب موقفه الاقتصادي الصعب، فلقد كان بلا وظيفة لعدة أشهر، كما أن جميع مدخراته المالية قد أنهكها انهيار وول ستريت.

وامرأة قتلت نفسها في اليوم الذي عرض فيه بيتها للمزاد، بعد تخلفها عن سداد ثلاث دفعات نصف سنوية للرهن العقاري.

وهناك قصص كثيرة لأناس قتلوا زوجاتهم أو حيواناتهم الأليفة، ودمروا المنشآت، أو هاجموا الشرطة قبل أن ينتحروا.

وفي البلاد العربية قام بائع معدات إلكترونية بالانتحار بعد انخفاض حاد في المؤشر، كما قام آخر بطعن زوجته وابنته [١٢ عاماً] حتى الموت قبل أن يضرم النار في بيته ويقتل نفسه بعدما هلكت أمواله في خسارة الأسهم.

---

(١) كارثك راجارام، ٤٥ عاماً.

- **صدمات نفسية:** أستاذٌ جامعي يخلع ملابسه داخل إحدى شركات السمسرة، ويقفز فوق المكاتب كالمجنون بعد أن فقد عدة ملايين من الجنيهات جمعها من زملائه لاستثمارها في البورصة، وخابت كل محاولات تهدئته حتى سقط فاقدًا للوعي. وآخر يبول على شاشات عرض الأسهم!!

وأحدهم يصل إلى العيادة النفسية فاقدا الوعي لأن زوجته عيرته بفقدان المال وفقدان الرجولة.

- انتعش سوق الأطباء النفسانيين وازدادت الحالات ٣٠٪.

(إن العالم سيشهد مزيداً من الضغط النفسي، والانتحار، والاضطرابات العقلية، نتيجة لتفاقم الأزمة المالية، وسيكون تأثيرها على الفقير والغني)[١].

(ينبغي ألا نصاب بالدهشة إذا استمرت الزيادة في التوترات، وحوادث الانتحار، والاضطرابات العقلية)[٢]. في شركة فولت أوبشنز[٣] فإن الحالات المتعلقة بالضغط النفسي الناشئ عن العقبات والمصاعب المالية قد ارتفعت بنسبة ٢٠٠٪ في كاليفورنيا[٤].

---

(١) حسب تصريح منظمة الصحة العالمية.

(٢) كما يقول (مارجريت تشان) المدير العام لمنظمة الصحة العالمية.

(٣) رابع أكبر شركة خدمات طبية وصحية في أمريكا.

(٤) المصدر : لوس أنجلس تايمز.

- وقال الدكتور ماسون ترنر[١]: (إن عدد الحالات المسجلة خلال أغسطس قد تضاعفت أربع مرات، مع نسبة تقدر بـ٦٠٪ من المرضى قالوا إن الضغوط المالية ساهمت في معاناتهم).
- نصف الأمريكيين تقريباً يقولون: إنهم يحسون بضغط نفسي متزايد عليهم حيال عجزهم عن توفير حاجات عائلاتهم الأساسية، و ٨٠٪ يقولون إن الاقتصاد هو سبب أساسي لهذا الضغط[٢].

علل ٤٨٪ من الأمريكيين لجوءهم إلى الإكثار من الأكل أو الأكل غير الصحي لمجابهة الضغط.

بينما قام ٣٩٪ بتركهم لوجبة واحدة يومياً خلال الشهر الماضي نتيجة الضغط.

وفي بريطانيا فإن الواقعين في الديون يعانون من ضعفي معدل الاكتئاب، وضعفي معدل الاختلال العقلي، وضعف معدل الاعتماد على الخمر، وثلاثة أضعاف معدل الاعتماد على المخدرات، وذلك مقارنة بباقي سكان بريطانيا...ويُخشى بزيادة الواقعين في الديون أن تزداد آثار الصدمات على الصحة العقلية[٣].

---

(١) رئيس الأخصائيين النفسيين في مركز قيصر للعناية الطبية بسان فرانسيسكو.

(٢) الرابطة الأمريكية لعلم النفس.

(٣) المصدر: جريدة تليغراف ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٨، ربيكا سميث ، المحرر الطبي.

وعن آثار الصدمة الحالية على الصحة العقلية مقارنة بآثار ١١ سبتمبر: قال المدير التنفيذي لشركة كوم سايك: (ربما كانت أحداث ١١ سبتمبر أعلى ابتداءً، إلا أن أثر هذه الأزمة أدوم وأبقى)، وقال عن التبعات النفسية (إنها ستزداد سوءاً وعمقاً)[١].

الإصابة بالأمراض:

- آلاف البشر يصابون بـ «الجلطة»، وأمراض القلب، والعديد من أمراض الجهاز العصبي، إثر انهيار البورصات.
- ازدادت أوجاع الرأس والصداع لتشمل ٥٦٪ (مقارنة بـ ٣٦٪ في عام ٢٠٠٧م).
- الموت المفاجئ بالسكتة القلبية ونحوها.

من الناحية الاجتماعية:

- **فقدان الوظائف وازدياد البطالة**... فقد بدأت كثير من الشركات في الاستغناء عن موظفيها نتيجة انخفاض الطلب على منتجاتها.
- تظهر إحصاءات رسمية أن نحو ١٥٩ ألف أمريكي فقدوا وظائفهم في سبتمبر الماضي.

---

(١) المصدر : مقالة روب واترز ودايفيد ألموس بعنوان : هواتف الصحة العقلية تئزّ اكتئاباً من الركود في الولايات المتحدة – التحديث الأول.

- قام مصنع السيارات السويدي «فولفو»، المملوك لعملاق صناعة السيارات الأمريكي (فورد)، بتسريح ١٥٪ من قواه العاملة، بواقع نحو ٢٧٠٠ موظف داخل السويد، و٦٠٠ في الخارج.
- حذر رئيس منظمة العمل الدولية من فقدان حوالي ٢٠ مليون شخص وظائفهم بنهاية عام ٢٠٠٩م على خلفية الأزمة المالية العالمية.
- إن عدد العاطلين قد ارتفع من ١٩٠ مليونا خلال عام ٢٠٠٧م إلى ٢١٠ مليون أواخر ٢٠٠٩م.
- نسبة البطالة في الولايات المتحدة وأغلب دول العالم سترتفع لتصل إلى ٢٥٪.
- وتوقعات تشير إلى إمكان إلغاء أكثر من مليون وظيفة عام ٢٠٠٩م بسبب تباطؤ الاقتصاد.
- بعض الشركات خفضت عدد أيام العمل من ستة إلى خمسة أيام في الأسبوع بينما قامت شركات أخرى بتجميد العمل الإضافي.
- حذر الأمين العام للأمم المتحدة من أن الأزمة المالية العالمية قد تكون الضربة الأخيرة التي لا يستطيع أن ينجو منها كثير من أفقر فقراء العالم.

  وقال: إن الأزمة تعرض للخطر كل شيء فعلته الأمم المتحدة لمساعدة فقراء وجياع العالم.

- (الأزمة المالية تهدد معيشة مليارات الأشخاص عبر العالم) [١].
- من المتوقع ارتفاع عدد العاملين الفقراء الذين يعيشون على أقل من دولار يوميا بحوالي ٤٠ مليونا فيما يرتفع عدد الذين يعيشون على دولارين يوميا بما يزيد على ١٠٠ مليون.
- في رسالة بعثت بها منظمة الأغذية والزراعة «الفاو» إلى ٣٤ ألف لجنة للأمن الغذائي في أنحاء العالم ، تقول فيها: (إن انهيار أسواق المال في العالم سيتمخض عن مجاعة حقيقية تنال ٣٦ بلدا في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية بحلول ٢٠٠٩م).
- نظام التأمين الاجتماعي بات غيرَ قادرٍ على تغطية كل طلبات المساعدات المالية للمواطنين.
- مدراء شركات غربية في الخليج يصدرون قرارات بإيقاف التوظيف فوراً، المتوقع بعده تسريح موظفين، والمتوقع بعده تخفيض رواتب موظفين.
- إغلاق مؤقت لبعض المصانع .
- تراجع أسعار المنازل.
- تراجع النفط دون ٦٠ دولاراً .
- انخفاض الطلب على النفط وانخفاض سعره سيؤثر على مشاريع التنمية.

---

(١) الأمين العام للأمم المتحدة.

- ملايين مهددون بالتشرد في أمريكا.
- الكثير من السكان سيتركون مساكنهم، ومن يضطر لبيعه فسيخسر ٤٠٪ من قيمته.
- وقوع مشاجرات أمام عدد من مقار الشركات المالية التي منيت بخسائر فادحة.
- إخراج الأولاد من المدارس الخاصة أو تحويلهم من مدرسة إلى مدرسةٍ أرخص.
- توقف مشروع بناء بيت العمر.
- تهديد الأمان والاستقرار الأسري.
- تنامي الحقد الطبقي.
- استراليا ستخفض عدد المهاجرين إليها إذا أدت الأزمة المالية العالمية إلى زيادة معدلات البطالة[١] ووزير الهجرة البريطاني قال: (إن بريطانيا من الممكن أن تخفض عدد المهاجرين القادمين إليها نتيجة للأزمة الاقتصادية).

من الناحية الأسرية:

- **ازدياد العنف الأسري**: المشاكل المالية قد تقدح زناد العنف، ففي أغسطس استقبلت خطوط العنف الأسري أكثر من ٢٣,٤٢٦ مكالمة، وقد كان

---

(١) وكان يتوقع أن تستقبل استراليا أكثر من ١٩٠ ألف مهاجر خلال العام ٢٠٠٨ / ٢٠٠٩.

هذا زيادةً بقدر ١٠٪ مقارنة بالشهر نفسه في العام الماضي[١].

- **ازدياد الطلاق:** من المتوقع أن تتسبب خسائر البورصة في حالات «طلاق» عديدة بين المستثمرين بسبب إقدام أحد الزوجين على الاستثمار «سرًا» دون علم الآخر، خاصةً من موظفي وموظفات البنوك والمؤسسات المالية.
- **ازدياد بعض أنواع الرذيلة:** فسوق البغايا قد زادت أنشطتهم على إثر الانحدار الاقتصادي[٢].
- **تخلخل البيوت القائمة على مجرد المادية:** فستتعرض الكثير من العلاقات الزوجية في الأزمة المالية الحالية لقدر كبير من التوتر والضغوط، وخصوصاً بالنسبة إلى الأزواج الذين يعملون في وظائف يفتخرون بها، فحين يفقد هؤلاء الرجال وظائفهم فإنهم عادة ما يفقدون قدراً كبيراً من ثقتهم بأنفسهم، وهذا بدوره يؤثر على حياتهم الزوجية. وهكذا فإننا سنرى الكثير من عمليات الطلاق والانفصال الأسري وسنرى الكثير من المصاعب الزوجية.

فمن المتوقّع أن تؤثِّر الأزمة المالية العالمية، على استقرار المجتمعات والأسر[٣].

---

(١) المصدر: جريدة أمريكان ستايتمان ستاف، أندريا بول، ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٨.

(٢) المصدر : سلايت ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٨.

(٣) قاله (بينيديتو ساراسينو مدير قسم الصحة العقلية بمنظمة الصحة).

لماذا تأثر الناس بالأزمة؟

تأثر كثير من الناس بهذه الأزمة تأثرا كبيرا، وانتشر بينهم الخوف والهلع، وهذا التأثر يرجع لأسباب كثيرة منها:

١- ضعف العقيدة في نفوس كثير من الناس.

إن عقيدة التوحيد ترسِّخ في النفس البشرية دوماً هدوءاً وثباتاً عجيباً، فالموحِّد يعرف أن مصدر الأمور كلها هو الله ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأنه لا يفعل شيئاً إلاَّ لحكمة بالغة، فهو المحمود على جميع أفعاله.

وكلما نقص هذا الجانب من النفوس، كلما زاد معدَّل الضغوط النفسية على الشخص والتجأ إلى أسباب وهميَّة لا تزيده إلاَّ شقاءً.

٢- نقص الإيمان والعمل الصالح.

فأكثر الناس اضطرابًا وحيرةً هم المبتعدون عن الله تعالى، فمن أين لهم الثبات في الأزمات وليس لهم معين ولا ناصر؟ من يُنقذهم؟ من يمنع تسرب الهموم؟ من ينجيهم من الغموم سوى الله سبحانه؟ ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٣ـ البعد عن التقوى.

الإنسان بطبعه هلوع جزوع عند المصائب إلا من رحم الله من عباده الصالحين، قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ٩ – ١١].

فهذه طبيعة الإنسان إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط وهلع وفزع من المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيرا، ولم يَرْج بعد ذلك فرجا ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

فهذا هو الإنسان بطبيعته، جزوع عند مس الشر، يتألم للذعته، ويجزع لوقعه، فلا يتصور أن هناك فَرَجاً؛ ولا يتوقع من الله تغييراً، ومن ثم يأكله الجزع، ويمزقه الهلع، ذلك أنه لا يأوي إلى ركن يشد من عزمه، ويعلق به رجاءه وأمله، وهي صورة بائسة للإنسان، حين يخلو قلبه من الإيمان .

٤ـ شدة تعلق الإنسان بالمال.

قال تبارك وتعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠]. أي: حباً كثيرًا شديداً.

وظهر هذا الأمر جليّا في هذه الأزمة، فما قاد الناس إلى الهلع والجزع، والحالات النفسية، والإقدام على الانتحار إلا حب الدرهم والدولار وتعلق القلوب بهذه الأموال تعلقًا شديدًا.

ولذلك وصف النبي ﷺ الحريص على المال الذي تعلق قلبه به بالعبد، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**»[1].

دَعِ الحِرصَ وَاقنَعْ بِالكفافِ مِنَ الغِنى ... فَرزقُ الفَتى ما عاشَ عِندَ مَعيشِهِ
وَقَد يُهلِكُ الإِنسانَ كَثرَةُ مالِه ... كَما يُذبَحُ الطاووسُ مِن أَجلِ ريشِهِ

٥ـ الخوف من ذهاب الرزق... وفقدان الوظائف.. وخسران المدخرات.

لابد أن يدرك العبد أن الله هو خالق السماوات والأرض، ومدبّر الأكوان، وأن بيده مفاتيح كل شيء، وأن أحدًا لا ينال من رزقه إلا بإذنه: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ [هود: ٦].

وقال: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد ضمن الله لنا الرزق سبحانه وتعالى، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧).

قال: قال النبي ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ**»(١).

وهو الذي يفقر من يشاء، ويرزق من يشاء، وبيده خزائن السماوات: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [المنافقون: ٧]. وهو واسع الرزق والملك: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»(٢).

٦- ضعف الإيمان بالقضاء والقدر:

إن ضعف الإيمان المُسبق بما قد يقع في العالم من حوادث يقدِّرها الله تعالى، قد يأتي بصدمة لا يمكن للإنسان تقبلها، وربما يفقد حياته حينها.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

---

(١) رواه ابن ماجة (٢١٤٤) وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك» [١].

٧ـ العيش في الوهم:

إمكانية الاقتراض جعلت الناس يعيشون وكأنهم مستثمرون حقيقيون مالكون لأموال تخصهم، مما جعل بعض المحللين يعلق بأن الفقراء المقترضين ظنوا أنفسهم مستثمرين، وأصبحوا ممن يشترون مجلات الأغنياء كمجلة موني والمجلات الاقتصادية.

٨ـ تأثير الشعارات البراقة مثل شعار «مجتمع الملكية»:

وهذا هو الشعار الأساس الذي كان ينادي به الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن وكسب به قلوب الكثيرين، وهو قائمٌ على الرؤية المتمثلة في تمكين كل أسرة أمريكية من تملك بيت، وأن: «أمريكا تصبح دولة أقوى في كل مرة تنتقل فيها أسرة أمريكية إلى منزل مستقل ملك لها ».

ولم يراع هذا القانون تفاوت إمكانيات الناس وقدرتهم على الوفاء طويل الأجل والتأثيرات الاقتصادية التي يمكن أن يسببها التسهيل الزائد في باب القروض إلى حد السماح بقروض تملك منازل دون دفعات شهرية لمدة ٢٤ شهراً.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٠٠) وصححه الألباني.

٩ـ تسهيل الحصول على القروض:

فقد أتيح للجميع بلا استثناء وسمح باقتراض أي مبلغٍ مهما كثر والاقتراض بأي سبب مهما ضعف. حتى أدى إلى أن ازدادت الديون العائلية من ٦٨٠ مليار دولار عام ١٩٧٤م إلى ١٤ تريليون دولار. وهذا المبلغ ازداد ثلاثة أضعاف خلال السنوات السبع الماضية فقط . فالعائلة العادية تملك ١٣ بطاقة ائتمان ، و٤٠ ٪ منها تم استعمالها لشراء السلع ، مقارنة بـ ٦٪ عام ١٩٧٠م [(١)].

(١) نيوزويك ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٨ ص١٤.

نصائح لمن تأثر بالأزمة

١- الالتجاء إلى الله عند الكربات:

الكاشف للفاقة هو الله عز وجل، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ»(١).

٢- الرضا بقضاء الله وقدره:

الرضا بالقضاء والقدر يجنب من خسر ماله الانهيار النفسي والإحباط المعنوي، فلا يصاب بالجنون أو بسكتة قلبية، أو ينتحر كما وقع لبعض القانطين. قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١].

فمن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعَوَّضه عما فاته من الدنيا هُدى في قلبه، ويقينا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرًا منه(٢).

لا تجزعنَّ على ما فات مطلبه ... ها قد جزعت فماذا ينفع الجزع؟

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٦) وأحمد (٣٨٥٩) بلفظ مقارب، وصححها أحمد شاكر.

(٢) القرطبي (١٨/ ١٣٩)، ابن كثير(٨/ ١٣٧).

٣ـ تسلية النفس بعدم انفرادها بالمصيبة.

على من ابتلي في ماله أن ينظر إلى من أصيب بمثل مصيبته أو أعظم منها، وهذا يحمله على الصبر وتحمل حرارة المصيبة؛ لأن الاشتراك في المصيبة مما يهونها على النفس.

٤ـ ما عند الله خير وأبقى.

فإذا خسرت شيئاً في الدنيا؛ فانظر إلى ما هو مدخر لك في الآخرة ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦]. ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿ خَيْرٌ ﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر، ولا انتقال.

٥ـ الاسترجاع وذكر الله عند المصائب.

على من ابتلي في ماله أن يسترجع، كما قال الله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي**

وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»(١) .

فقد جعل الله عز وجل كلمات الاسترجاع ملجأ وملاذاً لذوي المصائب، وعصمة للممتحنين من الشيطان، لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة(٢) .

أَلا فَاصبِر عَلى الحَدَثِ الجَليلِ ... وَداوِ جَواكَ بِالصَبرِ الجَميلِ
وَلا تَجزَع وَإِن أُعسِرتَ يَوماً ... فَقَد أَيسَرَت في الزَمَنِ الطَّويلِ
وَلا تَيأَس فَإِنَّ اليَأسَ كُفرٌ ... لَعَلَّ اللهَ يَغني مِن قَليلِ
وَلا تَظُنَّنْ بِرَبِّكَ غَيرَ خَيرٍ ... فَإِنَّ اللهَ أَولى بِالجَميل

٦ـ تذكر ما بقي من النعم والشكر عليها.

ليشكر العبد ربه على نعمة الصحة والعافية في البدن والنفس والولد والدين، فكل هذه نعم عظيمة تستوجب شكر الله تعالى.

قال ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»(٣) فإذا ذهب المال، فانظر كم نعمة بقيت، بقي لك الكثير، بقيت لك صحتك، وأولادك، وعقلك، وقبل كل ذلك بقي لك دينك .

(١) رواه مسلم (٩١٨).
(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (٢/ ٥٧١) .
(٣) رواه الترمذي(٢٣٤٦)، وحسنه الألباني.

٧ـ التفكر في الآخرة دواء لكل مصيبة في الدنيا.

عن زيد بن ثابت ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**من كَانَتْ الْآخِرَةُ همهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا همهُ، جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»(١).

قال السندي: ..... فالحاصل أن ما كتب للعبد من الرزق يأتيه لا محالة إلا أنه من طلب الآخرة يأتيه بلا تعب، ومن طلب الدنيا يأتيه بتعب وشدة.

فطالب الآخرة قد جمع بين الدنيا والآخرة، فإن المطلوب من جمع المال الراحة في الدنيا وقد حصلت لطالب الآخرة.

وطالب الدنيا قد خسر الدنيا والآخرة لأنه في الدنيا في التعب الشديد في طلبها، وأي فائدة له في المال إذا فاتت الراحة.

٨ـ عدم ازدراء ما بقي من نعمة الله في المال.

فقد يكون عند بعض الأغنياء (١٠٠) مليون فيذهب نصفها مثلاً، فصحيح أنه قد خسر خسارة كبيرة؛ ولكن انظر ماذا أبقى الله تعالى له... (٥٠) مليوناً. فلينظر إلى من لا يملك في دنياه شيئاً؛ فإن ذلك سيخفف عنه ما هو فيه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ**»[(١)].

٩ـ التحلي بالقناعة:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول ﷺ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**»[(٢)]. وهذا حديثٌ بديعٌ بليغٌ ... لأن الإنسان مهما بلغ من الثراء فإنه لن ينام إلا على فراش واحد، ولن يأكل إلا في بطن واحدة. وعن عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي !! وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**»[(٣)].

معظم الناس لا يقتصرون على ما يكفيهم، بل يستزيدون منه بصورة مبالغة رغبة في التأمين للأبناء والأحفاد، والغريب أن بعض هؤلاء يخسر صحته، بل ويوقع نفسه في المحرمات في أحيان كثيرة سعياً وراء جمع حطام الدنيا.

إِنَّ القَناعَة مَن يَحلل بِساحَتِها ... لَم يَلقَ في دَهرِهِ هَماً يُؤرِقُـــه

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٣).

(٢) رواه مسلم (١٠٥٤).

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٨).

وكان محمد بن واسع يبلُّ الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: (من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد).

١٠ـ قوة القلب.

فإن من أعظم العلاجات في مواجهة الأزمات: قوة القلب وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهام والخيالات التي تجلبها الأفكار السيئة. و«**الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ**»[١].

وقد كشفت هذه الأزمة الحصيف من الإمَّعة، وكشفت قوة قلب أناس وضعف قلوب آخرين.

والذعر عند المصيبة مصيبة أخرى، فبعض المصائب مثل اشتعال بعض الحرائق البسيطة في الأماكن المزدحمة يكون معظم الموت بالدهس بالأقدام.

١١ـ توطين النفس على ما وقع.

فينبغي للعبد أن يقدِّر أسوأ الاحتمالات التي ينتهي إليها الأمر، ويوطن على ذلك نفسه، فإذا فعل ذلك فليسعَ إلى تخفيف ما يمكن تخفيفه من مصيبته وأزمته بحسب الإمكان، فبهذا التوطين وبهذا السعي النافع، تزول همومه وغمومه.

---

(١) رواه مسلم (٩٢٦).

١٢ـ دع الهموم.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**مَنْ جَعَلَ الهمُـوم هَـمـًّا وَاحِدًا، هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ**»[1].

معيار الغنى الحقيقي ليس هو كثرة المال ووفرته، وإنما هو غنى النفس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»[2].

١٣ـ معرفة أن الفقر والعوز وقلة الدخل وضعفه ليست عيباً.

فلقد عاش سيد البشر حبيبنا ﷺ فقيرا، كان ﷺ يمرُّ به الشهر تلو الشهر لم يوقد في بيته نار[3]، أي: لم يطبخ في بيته شيء.

١٤ـ الاقتصاد في المعيشة، والتوسط في النفقة والتخلي عن النمط الاستهلاكي، وعدم الانـجرار وراء القروض للإبقاء على المستوى المعيشي الأول.

والاقتصاد في النفقة في حال الفقر والغنى هو هدي سلفنا الصالح .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧)، وصححه الألباني .

(٢) رواه البخاري(٦٤٤٦).

(٣) رواه البخاري(٢٥٦٧)، ومسلم(٢٩٧٢).

قال بعض السلف: «الاقتصاد في النفقة: نصف المعيشة».

وقال معاوية: «باب السلامة: الاقتصاد».

وعلى المؤمن أن يستعد في أوقات الرخاء على مواجهة أوقات البلاء، قال عمر رضي الله عنه: «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم وإن عِباد الله ليسوا بالمتنعمين».

١٥ـ استئناس المقصر بحق الله بقصة أصحاب الجنة عندما زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وآن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم، وطوع أمرهم، وأنه ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيجذونها مصبحين، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين.

ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [القلم: ١٩]. أي: نزل عليها عذاب الله ليلا فأبادها وأتلفها ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ [القلم: ٢٠]. كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار ولم يبق شيء ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [القلم: ٢٦ – ٢٧]. ثم ماذا ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ [القلم: ٣٠ – ٣٢].

فقيل: إن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها لأن من دعا الله صادقًا، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤله.

فوائد ودروس من الأزمة

١ـ وجوب التوبة إلى الله من المعاصي والاستغفار من الذنوب:

فما في الدنيا والآخرة من مصائب للفرد والمجتمع إلا وسببها الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]. ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام:٦]. قال العباس رضي الله عنه : (ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة).

قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]. أي: استعلن الفساد في البر والبحر أي: فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة[١].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٤٣).

وقال ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ، بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»(١). فهذه المصيبة قد تكون كفارة لمن تعاملوا بالمحرم.

فبالتوبة والرجوع إلى الله يرفع البلاء ويتنزل الرزق والرحمات: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح: ١٠ – ١٢].

٢ـ الحذر من الاستثمار فيما يسمى بـ« المشتقات المالية »:

بعد الخسائر التي منيت بها الشركات العالمية اتجهت إلى تسويق مشتقاتها المالية في الدول العربية، والمشتقات المالية بأنواعها تقدّر قيمتها بأكثر من ٦٠٠ تريليون دولار(٢).

وهذه المشتقات تتصف بـالتعقيد وهي من المسببات الأساسية لنشوء الأزمة العالمية. فشراء مثل هذه المشتقات في هذه الأوقات هو من قبيل التصرف المتهور في البيع والشراء ... فلابد من التزام الحكمة والتعقل في التصرفات.

٣ـ التزام تطبيق الشريعة الإسلامية في مجال الاقتصاد والمعاملات:

فقد تبين من هذه الأزمة فشل النظام الرأسمالي بعد فشل النظام الشيوعي من قبل.

---

(١) أخرجه أحمد(٢١٨٨١)، وابن ماجه(٤٠٢٢)، وصححه الحاكم.

(٢) http://arabic.pnn.ps/index.php?option=com_content&task=view&id=40271&Itemid=36

واليوم هم بأنفسهم يعترفون بفشل هذا النظام المالي، حتى قال الرئيس الفرنسي: (إننا في حاجة إلى إعادة بناء النظام النقدي والمالي العالمي من جذوره).

ودعا إلى قمة تجمع قادة الدول الكبرى لوضع نظام عالمي مالي جديد قبل نهاية عام ٢٠٠٨م.

والمصارف المحلية أصبحت تفكر جدياً بوقف عدد من التعاملات المصرفية ذات الثقافة الغربية الدخيلة على المصرفية الإسلامية، ومنها:عملية البيع على المكشوف، بجانب المراجعة الجادة لمسألة البيع بالدين، والبيع بالخيارات «الأبشنز».

هذه الأزمة تذكرنا بحال الدنيا المتقلبة والزائلة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

نفسي التي تَمْلِكُ الأشياءَ ذاهِبةٌ فلَسْتُ آسى على شيءٍ إذا ذهَبا

فالدنيا متاعها غرور، وزخرفها زور: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤ـ الحذر من التباهي وآثاره:

وذلك لأن أكبر الأسباب الداعية لتطلع الناس إلى ما هو أعلى من حالهم الحقيقي هو مقارنتهم لأنفسهم بغيرهم، وهو الوقود الأساس للتجديد في

المقتنيات تبعاً لموديل السنة في السيارات والأثاث وغيره، وهو مخالفة صريحة لأمره ﷺ بنظر الإنسان في أمر الدنيا إلى من هو دونه.

٥ـ الواقعية في الموازنة بين التملك والإيجار:

لا شك أن تملك بيت يضم الإنسان مع زوجته وبنيه مطلبٌ طبيعي، (وحسب علم الاقتصاد السلوكي فإن الإغراء العاطفي لتملك منزل أمرٌ قوي، ومن الصعب التخلص منه في شكل كامل حتى ولو كنا نرغب في ذلك)[(١)].

والواجب على العاقل أن ينظر في إمكانياته الحقيقية ، فإذا كان عاجزاً عن التملك فليفكر كثيراً قبل الدخول في شراء بيتٍ بأقساطٍ طويلة الأجل (١٥-٢٠-٢٥ سنة) نظراً للتأثيرات القوية لهذا الدين الطويل على الكثير من قرارات الإنسان واختياراته، وفي مثل هذه الحالة يكون الإيجار لبيتٍ في مستوى الإنسان هو الحل الأقرب ولو لم يكن مرغوباً نفسياً .

٦ـ الحذر من الاستثمار بالدّين:

أكثر المشاكل التي حلت بالناس وأفقدتهم ثرواتهم ونزلت ببعضهم إلى ما دون الصفر هي الوقوع في فخ البنوك التي تقرض المستثمر في الأسهم ونحوها مثل المبلغ الحقيقي الذي يملكه ، وتشترط أنه إذا سقطت الأسهم جاز

---

(١) روبرت شيلر/ نيوزويك ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٨م

للبنك بيعها للحصول على كامل قرضه ، ولذلك تتلاشى ثروات بعض الناس في أوقات الأزمات .

فلابد من العلم بأن الأصل في الدين الذم ، والأدلة الشرعية كثيرة في ذلك ، والعاقل الذي يتوقع أسوأ الاحتمالات لا يدخل نفسه في مخاطرة بأمر مذموم شرعاً (ولو لم يكن محرماً) من أجل التكثر من المكاسب، والواقع خير شاهد .

وعن أنس بن مالك ﵁ قال: كان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وضلع الدَّيْنِ [أي شدته]، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»[1] .

فقرن بين (**ضلع الدَّيْن، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**)!! واليوم نرى كيف غلبت الديون بنوكا، وشركات عالمية مع ما تملك من المليارات الخيالية، فاضطرت صاغرة لتعلن إفلاسها.

وقد تساهم الأزمة المالية في عودة مغتربينا وأصحاب العقول من الخارج!!.

حسب إحصاءات جامعة الدول العربية ومنظمة العمل العربية حول ظاهرة هجرة العقول العربية، حيث أوضحت مساهمة الوطن العربي بنسبة

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٩).

٤٠٪ من هجرة الكفاءات في العالم. يشكل الأطباء منهم نسبة ٥٠٪، والمهندسون ٢٣٪، والمهن الأخرى ١٥٪.

كما أكدت هذه الإحصاءات أن ٥٤٪ من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج لا يعودون إلى أوطانهم، وأن الأطباء العرب في بريطانيا يشكلون حوالي ٣٤٪ من مجموع الأطباء العاملين فيها.

إن ثلاث دول غنية هي أمريكا وكندا وبريطانيا تتصيد نحو ٧٥٪ من المهاجرين العلماء والأطباء والمهندسين العرب .

وقفات شرعية مع الأزمة المالية

مما لا يخفى على أحد أن الأزمة المالية اليوم تعصف بالعالم شرقاً وغرباً، فهي حدثٌ عظيم أقضَّ مضاجع السَّاسة وأصحاب القرار وأرباب الفكر والاقتصاد، وهي خطبٌ جسيم، له تعقيداته وتداعياته المتعددة، يوضح ذلك الاضطراب الكبير الذي يعيشه الاقتصاديون والسياسيون، وكثرة الكتابات، وتباين التحليلات، فهم في أمر مريج، وقد أقبل بعضهم على بعض يتلاومون فيمن يتحمل مسؤولية ما حدث.

وهذه الأزمة تستوجب وقفاتٍ لبيان بعض الجوانب الشرعية المهمة المتعلقة بها:

١- الأزمة حقيقية:

تهاوت فيها بنوك كبرى ومؤسسات مالية، وانحدرت فيها البورصات العالمية، وتبخرت تريليونات، وطارت مليارات من أسواق المال، وهوت دول في العالم إلى الحضيض، وعشرات الآلاف فقدوا أموالهم إما على هيئة أسهم، أو مدخرات أو استثمارات، وتآكلت من استثمارات الشعب الأمريكي في البورصات المالية بمقدار ٤ تريليون دولار، وصارت هذه الأزمة أشبه بتسونامي يعصف باقتصاديات الكثير من الدول.

٢- ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾:

الاقتصاد والمال هما القاعدة الأساس للمجتمع الغربي، فركنوا إليها وتنكبوا شريعة الله ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

وها نحن نرى اليوم تدميراً كبيراً يُطبق عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فأمسى البناء الاقتصادي الذي تفاخروا به وظنوا أنه يمنعهم ويحميهم سبباً لاضطرابهم وفساد أمرهم، فجاءهم البلاء من فوقهم ومن أسفل منهم، وكانوا يظنون نظامهم المالي محكماً فجاءهم من جهته ما لم يكونوا يحتسبون ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٣- ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾:

كما أن للمصائب والكوارث أسباباً مادية معروفة، فإن لها أسباباً شرعية كذلك، ووجود الأسباب المادية لا يتنافى مع الأسباب الشرعية.

فالظلم والبغي والذنوب والمعاصي وأكل الحقوق كلها أسباب لنزول المصائب بالناس، على مستوى الأفراد والجماعات، بل على العالم كله أحياناً، كما نشهده في هذه الأزمة التي تنطوي على كوارث يتبع بعضها بعضاً، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]،

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وفي الحديث الصحيح: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ**»[1] فلم يكن ما نزل بالقوم آفة سماوية، وإنما بلاء أصابهم بذنوبهم وما كسبت أيديهم.

٤ـ الله يُمهل ولا يُهمل:

فقد أمهلهم وهم يتعاملون بالربا، ويأكلونه أضعافًا مُضاعَفة، ويحاربونه تعالى على مدى عقود من الزمن، حتى أخذهم بالنقص والسنين، كما فعل مع فرعون وقومه من قبل: ﴿ **وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ** ﴾[الأعراف: ١٣٠].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، **ثُمَّ قَرَأَ**: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾[2]

فلا يظنن ظانٌ أنَّ الله في عليائه وكبريائه وجبروته يترك هؤلاء يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، ويكفرون به، ويقترفون كل كبيرة، ثم لا يُنزل بهم بطشه وعقوبته وعذابه.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير(١/ ١٧٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري(٤٦٨٦)، ومسلم(٢٥٨٣).

٥ـ مصير الباطل إلى ضعف واضمحلال:

فمهما علا وارتفع فهناك يوم سينخفض فيه ولابد، سنةٌ من سنن الله لا تتبدل ولا تتغير قال ﷺ: «**حَقٌّ عَلَى الله أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا وضعهُ**»[1] لقد تبوّأ الغربيون أعلى اقتصاد عالمي، وقالوا: «من أشدّ منّا قوّة؟» فأنزلهم الله تعالى من صياصيهم وقلاعهم المالية، وقذف في قلوبهم الهلع والرعب، وأظهر زيف ادعاءاتهم.

٦ـ انكسار عصا العالم الغربي:

لقد أكلت سوسة الربا والمحرمات المالية عصا العالم الغربي، الذي كان يتظاهر أمام الناس بأنه قويٌ معتدل، بينما هو يستند على عصاً منخورة، فلما خر تبينت الجن والإنس والشرق والغرب أنَّ الربا حرامٌ ماحق.

وقد صرح وزير المالية الألماني (بير شتاينبروك) قائلا: (إن العالم لن يعود أبداً إلى ما كان عليه قبل الأزمة).

٧ـ حرب الله على أهل الربا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ – ٢٧٩].

---

(١) البخاري(٢٨٧٢).

وهذه الحرب تتجلى اليوم بصورها المتنوعة: على الأعصاب والقلوب.. على البركة والرخاء.. على المال والقوة.. على السعادة والطمأنينة.

إنها حرب القلق والخوف.. الساحقة الماحقة من جراء النظام الربوي المقيت.. والمسعرة حتى الآن، وتأكل الأخضر واليابس.

وهاهم في الغرب اليوم يصابون بالاكتئاب والقلق والإحباط والانهيارات النفسية جراء الأزمة المالية، حتى قالت العالمة النفسية الأمريكية (نانسي موليتور): (لم أشهد يوماً طوال ممارستي هذه المهنة منذ عشرين عاماً، ما يشبه ذلك، إن مستوى القلق يحطم كلَّ الأرقام القياسية).

ووصل الأمر إلى حالات قتل وانتحار نتيجة ضغوط الأزمة.

٨- ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٦] :

والمحق حسي ومعنوي، فيذهب ببركة المال فلا ينتفع به صاحبه، أو يذهب بالمال كليةً كما سمعنا عن تبخر ترليوني دولار في خمسة أيام من أموال مصلحة التقاعد الأمريكية... وقد أدت الأزمة حتى الآن إلى اختفاء ١٦ بنكا من الساحة، من بينها بنك «إندي ماك» الذي يستحوذ على أصول بقيمة ٣٢ مليار دولار، وودائع تصل إلى ١٩ مليار دولار، بل طالتْ عملية الإفلاس سبعة بنوك كبرى في أوروبا.

ويتوقع بعض المحللين أن يتم إغلاق ما يقرب من ١١٠ بنكا، تصل قيمة أصولها إلى حوالي ٨٥٠ مليار دولار بحلول منتصف عام ٢٠٠٩م.

٩- المرابي يعاقب بنقيض قصده:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٩]. وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «**مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنْ الرِّبَا إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ**»[1].

وقد ظهر للناس من ذلك صور كثيرة، منها أن خسائر ١٠ أثرياء بريطانيين بلغت ٤٠ مليار دولار، وفي روسيا بلغت خسائرُ رجال الأعمال نحو ٢٣٠ بليون دولار، ويمثل هذا المبلغ نحو ٦٢٪ من مجموع ثروات الأثرياء الروس، كما أن أحد المرابين الكبار تناقصت ثروته خلال أربعة أشهر بمعدل ٧ ملايين لكل ساعة، فكيف حسرة أمثال هؤلاء !!.

١٠- تزاوج الربا والميسر نذير خراب ودمار:

وكانت من نتيجة هذا التزاوج إعلان أكبر المصارف الأمريكية إفلاسها، كمصرف «ليمان براذرز»، ومصرف «أنتجرتي»، و «واشنطن ميوتشوال»، وانهيار أكبر شركة تأمين (AIG) التي دفعت (١١) بليون دولار كتعويضات، وتكبدت أكبر خسائر في تاريخها الذي يمتد إلى تسعين عاما!!.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٧٩)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وأصبح ما بين (٢-٣) ملايين أمريكي يواجهون خطر فقدان منازلهم، بسبب عدم قدرتهم على دفع الأقساط الشهرية.

ومع هذه الآثار يطالبنا بعض من في قلبه مرضٌ بالتأمين ضد مخاطر الإفلاس!! .

١١- جزاء الطمع:

الطمع والجشع، والخداع، والتدليس في العقود، مع التغرير بالناس، واستغلال حاجتهم.. أسبابٌ لها تأثيرها الواضح في الأزمة، فقد توسعت بعض هذه البنوك في الإقراض لأكثر من (٦٠) ضعف حجم رؤوس أموالها الحقيقية، جشعاً وطمعاً في الأرباح الكثيرة. وقد علقت بعض صحفهم على هذه الأزمة بقولها: «لوموا الطمع».

١٢- مخاطر التعامل بالأرصدة الوهمية:

فقد أظهرت الأزمة الفارق الكبير بين القطاع العيني من السلع والخدمات والمنتجات الحقيقية، وبين المشتقات المالية المعاصرة كالنقود الإلكترونية، والسندات المالية، والبطاقات الائتمانية على نقود وهمية.. والأرصدة الإلكترونية التي لا وجود لها إلا في ذاكرة الحواسيب... تكتسب قيمتها من ضمان البنوك لها، فإذا فقدت الثقة في هذه البنوك والمؤسسات زالت قيمتها.

فماذا يفعلون بعد أن تبخرت الأرقام الفلكية للمليارات والترليونات التي كانت تظهر على شاشات البورصات.

١٣ـ الاقتصاد الحر والفشل:

هذه الأزمة أكبر دليل على فشل نظرية الاقتصاد الحر، فترك الباب مفتوحا على مصراعيه ليتصرّف الفرد كما يشاء، دون قيود وضوابط لتصرفاته الاقتصادية لتنمية المال، أدى إلى تضخّم رؤوس المال لدى فئة من المجتمع.. فعُدِم التوازن وظهرت الطبقية بآثارها المدمرة مخالفة لقول الله تعالى: ﴿ كَىۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾ [الحشر: ٧].

ورغم الحرية المزعومة وجدنا في حلولهم للأزمة تدخل الدولة بسلطتها لتأميم المصارف والمؤسسات المالية، وضخ الأموال لشراء الأصول، وتغيير الأنظمة، وتقييد حريات الملاك، من أجل حماية مؤسساتها الاقتصادية من الانهيار.

١٤ـ تهالك المبادئ الرأسمالية:

فقد أبانت هذه الأزمة عن فشل النظام الرأسمالي وعجزه عن تحقيق التوازن والعدالة الاجتماعية والاقتصادية بين فئات المجتمع المختلفة.

ولطالما تباهى الغرب بنظامه المالي، وزعم أنه أكمل ما وصلت إليه البشرية حتى قال فوكو ياما: (إن المجتمع الأمريكي هو ذروة كمال البشرية، وقمة نضج الإنسانية، وليس بعده شيء).

واليوم يعترف قادة الغرب بفشل نظامهم المالي ووصفوه بالبالي والمهترئ.

حتى قال الرئيس الفرنسي ساركوزي: (إننا في حاجة إلى إعادة بناء النظام النقدي والمالي العالمي من جذوره).

ودعا إلى قمة تجمع قادة الدول الكبرى لوضع نظام عالمي مالي جديد قبل نهاية عام ٢٠٠٨م.

١٥ـ أين المغترون بالنظام الاقتصادي العالمي:

الذين ظنوا أنهم يأوون إلى ركن شديد، وقالوا: النظام المالي العالمي محكم لا يتطرق إليه الخلل ...ثم تبين أنهم يسيرون وراء سراب لا حقيقة له، وأنهم انخدعوا بمظاهر مزيّفة، لا تستحق الإشادة ولا التمجيد.

ولقد كان في تأخر السقوط حكمةٌ بالغةٌ من الابتلاءِ والإملاء للظالمين والمغترين بهم.

١٦ـ ثم نكسوا على رؤوسهم:

فبعدما تجاوز العالم هول الصدمة الأولى للانهيار المالي خرج بعض المنافقين ومتعصبة الرأسمالية ليدافعوا عن نظامهم المالي الرأسمالي، زاعمين أن الخلل ليس فيه، وإنما في سوء تطبيقه ونقصان بعض القيود فيه، وأنهم لا يحتاجون غيره وإنما يحتاجون لبعض التعديل فيه.

وهذا ما أصبح ينادي به كثير من قادتهم وتدعو إليه نتائج مؤتمراتهم، ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [يس: ٤٦]، ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

١٧- خطورة وضرر فصل الاقتصاد عن الإسلام:

لطالما سمعنا المناداة بضرورة الفصل بين الاقتصاد والدين، ولسان حالهم يقول كما قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

لقد أبانت هذه الأزمة أن الاقتصاد إذا ابتعد عن أحكام الشريعة وقواعدها تخبط في الظلمات، وأورث الكوارث والأزمات.

١٨- القواعد الشرعية المالية صِمَام أمان للاقتصاد:

لما تجاوز القوم هذه القواعد الشرعية في التعاملات المالية وتعدوا حدود الله وانتهكوا حرماته من خلال: الإقراض والاقتراض بالربا، وبيع الديون، والبيوع الوهمية (بدون تقابض)، والبيع قبل القبض، وبيع ما لا يملك، وبيع الغرر والجهالة، والتعامل بالميسر والتأمين.. تسبب ذلك في نكبتهم وسقوط شركاتهم وبنوكهم.. ووصل حجم المشتقات المالية الهالكة في العالم نحو ٦٠٠ تريليون دولار.

١٩- الأساس السليم يورث بناء سليماً:

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[التوبة: ١٠٩].

فلا اقتصاد بلا نور الوحي، وليس كما ينادى المستغربون بأنه (لا اقتصاد بغير بنوك، ولا بنوك بلا ربا).

٢٠ـ فرصة ذهبية:

ما حدث يعد فرصة ذهبية لأتباع النظام الاقتصادي الإسلامي ليبينوا أنه النظام الوحيد الناجح، والذي يحقق ما يحتاجه العالم.

ولقد بدأ الغربيون أنفسهم يدركون هذه الحقيقة، إذ دعت كبرى الصحف الاقتصادية في أوروبا لتطبيق الشريعة الإسلامية في المجال الاقتصادي للتخلص من براثن النظام الرأسمالي الذي يقف وراء الكارثة الاقتصادية التي تخيم على العالم.

حتى كتب أحدهم متسائلاً: (هل تأهلت وول ستريت لاعتناق مبادئ الشريعة الإسلامية)؟.

وقالت (سواتي تانيجا) إحدى خبيرات المال في أوروبا: (إن الأزمة المالية بأمريكا تعطي فرصة ذهبية للاقتصاد الإسلامي المنافي للتعاملات الربوية).

٢١ـ تهيؤ الأنظمة السياسية والمالية لتقبل النظام الإسلامي:

بعد أن كان محارباً من قبل، وقد صدر مؤخرا كتاب للباحثة الإيطالية (لووريتا نابليوني) بعنوان «اقتصاد ابن آوى» أشارت فيه إلى أهمية التمويل الإسلامي، وقالت: (المصارف الإسلامية يمكن أن تصبح البديل المناسب للبنوك الغربية).

وبعض المصارف العربية بدأت تفكر جدياً بوقف عدد من التعاملات المصرفية ذات الثقافة الغربية الدخيلة كعمليات البيع على المكشوف، والبيع بالدين، والبيع متعدد الخيارات «الأُبشنز».

والمؤسف أنهم لم يفكروا بذلك إلا بعد أن اعتمده الغرب اتباعاً لهم حذو القذة بالقذة.

٢٢ـ استثمار الأزمة في إيصال الحق للناس:

إن من واجب الخبراء الماليين الإسلاميين أن يستخرجوا مفردات النظام المالي الإسلامي من القرآن والسنة ويقدموه للبشرية نظاماً مالياً كاملاً مستقلاً، لا تابعاً ولا ترقيعياً.

فليس النظام الإسلامي هو الخالي من الربا فقط، ولا المقتصر على أحكام دون أخرى، ولا المشتمل على منتجات غربية بطلاء إسلامي، بل هو نظام كامل مستقل يحقق مقاصد الشريعة والعدل في التعاملات المالية كافة.

٢٣ـ ظهور حكمة الله في التشريع:

فقد استبان لكل من له قلب ونظر بعين اليقين أن الله تعالى لا يشرع شيئاً إلا وفيه مصلحة العباد، ولا يحرم شيئاً إلا وفيه ضررهم في الدنيا والآخرة.

وهذه الأزمة المالية قد أوضحت بجلاء أضرار الربا والمخالفات المالية، فسبحان من حرمها وأغلظ في تحريمها!!.

وليس مستغرباً أن يكتب رئيس تحرير مجلة «تشالينجز» قائلا: (لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطبقوها، ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات).

٢٤- الشفاء والعلاج لا يكون بما حرَّم الله:

فالأموال المخصصة لإنقاذ المصارف وانتشال النظام المالي بزعمهم مصدرها الاستدانة الربوية، أو الظلم بزيادة الضرائب، أو طبع المزيد من العملة بغير رصيد المؤدي للتضخم، وقد ذكرت صحيفة «لو باريزيان» الفرنسية أن الحكومة الفرنسية ستقدم (١٠,٥) مليار يورو إلى ٦ من المصارف بفائدة مقدارها ٨٪ وهي قروض بالربا أيضا من بنوك ودول أخرى، ولسان حالهم يقول: (وداوني بالتي كانت هي الداء).

٢٥- القوة المادية عند غير المؤمنين تغرُهم وتطغيهم:

وتقودهم إلى الاستكبار في الأرض، واستعباد الآخرين، وتنسيهم قوة الله، وتجعلهم يكفرون به، ويجحدون بآياته.

وهذا هو المرض الخطير الذي أصاب قوم عاد ﴿ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ ﴾ [فصلت: ١٥].

وكم من الأمم والأقوام المتجبرين في الماضي والحاضر يتصرفون بالمنطق ذاته، وسيهلكهم الله كما أهلك قومَ عاد!.

فكفار اليوم ليس لديهم حصانة من بطش الله: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣].

٢٦ـ عاقبة الظلم والبغي والتكبر وخيمة:

فالظالم والباغي والمتكبر في الأرض بغير الحق لا يسلم من سوء العقاب ولا يفلح ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢١] ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وهاهي أقوى دولة في العالم اليوم بحاجة إلى المساعدة وتريد الاقتراض بأي وسيلة، بعد أن أنفقت في حربها الظالمة على العراق أكثر من (٧٠٠) مليار دولار باعتراف بعض ساستهم، وقد قدر بعض باحثيهم أن كلفة مغامراتهم العسكرية في العالم بلغت (٣) تريليون دولار.

٢٧ـ سنة الله مع الأمم الظالمة واحدة:

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١]، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩] ، ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١] .

وكلمة «قارعة» نكرة تفيد العموم، فتعم كل قارعة، فقد تكون مسموعة كالصواعق والعواصف، وقد تقرع القلوب بالرعب والذعر والهلع كالانهيارات والأزمات المالية.

إنه رعب صامت على الشاشات !!.

كتب أستاذ علم السياسة والاقتصاد البريطاني (جون غري) مقالا في صحيفة «ذي أوبزيرفر» تحت عنوان (لحظة الانكسار في سقوط قوة أميركا) قال فيه: (إن حقبة الهيمنة الأميركية قد انتهت).

٢٨ـ شؤمُ المعصية يعم:

وهذا ظاهر في الأضرار التي لحقت بالاقتصاديات العالمية كافة، ويؤكده قول الأمين العام للأمم المتحدة: (الأزمة المالية تهدد معيشة مليارات الأشخاص عبر العالم).

وفي رسالة بعثت بها منظمة الأغذية والزراعة «الفاو» إلى ٣٤ ألف لجنة للأمن الغذائي في أنحاء العالم ، تقول فيها: (إن انهيار أسواق المال في العالم سيتمخض عن مجاعة حقيقية تنال ٣٦ بلدا في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية بحلول ٢٠٠٩م).

وقد بلغت خسائر البورصات العالمية قرابة (٣) تريليون دولار، وتبخرت (١٥٥) مليار دولار من بورصات الخليج في أسبوع.

وحذر رئيس منظمة العمل الدولية من فقدان حوالي ٢٠ مليون شخص وظائفهم بحلول عام ٢٠٠٩م على خلفية الأزمة.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وكان من حكمة الله في ذلك تبغيض أصحاب مركز الزلزال المالي في قلوب أهل الأرض كافة باعتبارهم المسؤولين عن هذه الكارثة.

٢٩ـ لله الحكمة البالغة في قضاءه وقدره:

فتقديره سبحانه مبني على حكمته، ودائر بين العدل والإحسان، ذلك تقدير العزيز العليم.

ولا يخرج شيء في الكون عن مقتضى حكمته، فهو الحكيم الخبير.

ومن حكمته سبحانه جعل المصائب والكوارث سبباً للاتعاظ والتذكر والرجوع إليه، ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

فمن الناس من يرجع إلى الله بسبب هذه الأزمة، وكثير حقَّ عليه العذاب، لا يتوب ولا يؤوب: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

٣٠- المُلك الحقيقي لله:

وقد استخلف الناس في هذا المال، فما شاء أبقاه وما شاء أخذه، يغني من يشاء ويفقر من يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع من شاء، وفي هذه الأزمة درس للمغترين والمغرورين السائرين على قول قارون: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]، الذين نسوا أن الله قادر على أخذهم وأخذ أموالهم وثرواتهم فجأة.

٣١- الإنسان هلوع جزوع:

أبانت هذه الأزمة عن مدى الهلع والجزع الذي أصاب الناس كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج:١٩–٢٢]. فإذا أصابه المكروه جزِع، ويئس، وقنط ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود: ٩].

وقد نتج عن هذه الأزمة: حالات انتحار وقتل.. سكتات قلبية ودماغية.. جلطات وأمراض مزمنة.. وانهيارات عصبية وأزمات نفسية.. وانتهت بعض الدراسات إلى أن ٥٧٪ من المتعاملين بالبورصة يصابون بالأمراض «النفس جسدية»، وفي تصريح لمنظمة الصحة العالمية: (الأزمة المالية ستزيد الاضطرابات العقلية في العالم).

أما المؤمن فحاله مختلفة تماما، عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

٣٢- شدة تعلُّق الإنسان بالمال:

إن هذه الأزمة مثالا واضحا للحقيقة التي ذكرها الله بقوله: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠] أي: حباً كثيرًا شديداً.

وقوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وكان من تأثير هذا الأمر أن أقدم بعض من خسر ماله على الانتحار، لأن المال كان كل شيء في حياته، فلما فقده لم يعد عنده للاستمرار في الحياة دافع، فأقدم على الانتحار بعد أن صار عبدا للدينار والدرهم والدولار، وهذا من نتائج تعلُّق القلب بغير الله.

٣٣- ضعف التوكل على الله في أمر الرزق والمعاش:

لقد كشفت هذه الأزمة عن مدى القلق الشديد على المستقبل، نتيجة

---

(١) رواه مسلم(٢٩٩٩).

للخوف من عدم القدرة على توفير الاحتياجات الأساسية، والتخلُّص من تبعات الديون.

ولو آمن الناس بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، وبقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] لرزقهم رزقاً حسناً سهلاً ميسوراً مضموناً كما يرزق الطير.

٣٤- في ذهاب أموال الجبابرة عبرة تذكّر بموقف الفريقين من الطاغية قارون:

وذلك لما خرج على الناس بأبهى زينته: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩].

وكذلك يقول المغترون في كل زمان، وأما أهل العلم والإيمان فيقولون: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].

فلما خسف الله به الأرض، كانت النتيجة: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٢].

٣٥ـ تقلب حال الدنيا وزوالها:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦]. فالدنيا ظل زائل، نعيمها يبور، وزخرفها زور ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٩] أي: محل الإقامة ومنزل السكون والاستقرار.

والدنيا خضرة حلوة، تغر أهلها، ولما ظن الكفار أن أموالها دائمة لهم بعدما نجحوا في التجارات والصناعات وتقدموا في الآلات والمخترعات، آتاهم أمر الله بغتة كما قال عز وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

٣٦ـ قصور البشر في التحليل وتوقع الأزمات:

فقد كانت بعض دراسات استشراف المستقبل عند الغرب تبشر باستمرار الازدهار وتحسن أوضاع الأسواق، بل إن أحد مراكز الاستشراف تنبأ بأن عام ٢٠٠٩م سيكون عام ازدهار اقتصادي.

وتوقع بنك «مورجان ستانلي» الأمريكي أن يبلغ سعر برميل النفط ١٥٠ دولار، وقالوا: انتهى عصر النفط الرخيص، وتوقع آخرون بلوغه ٢٠٠دولار للبرميل.

ومع تقدم العلوم الرياضية، والنظريات الاحتمالية، واختراع الحواسيب التي تقوم بالتحليل وحساب نتائج المعادلات الصعبة، ظن بعض الغربيين أن ذلك كاف في الحكم على المستقبل ومعرفته بدقة، فاعتمدوا كثيرا على نتائج أبحاثهم، فكانت هذه الأزمة مخيبة لتوقعاتهم ودراساتهم، صادمة ودافعة لهم للاعتراف بقصورهم وعجزهم واعترافهم بأنهم سيعيدون حساباتهم ويعدِّلون توقعاتهم. وصدق الله القائل: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

على أن بعض عقلائهم قد حذروا من هذه الانهيارات وأسبابها، ولكن لم تلق تحذيراتهم آذانا مصغية، إلا بعد فوات الأوان، بعد أن لم يعد الإنقاذ بالإمكان.

وختاماً:

نسأل الله تعالى أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، ويعز الإسلام والمسلمين، ويذل المنافقين والكافرين، ويعوض من أصيب من المسلمين خيراً، ويعظم لهم أجراً، ويوفقنا جميعا لما يحب ويرضى. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

محمد صالح المنجد

المحتويات